الكتاب السادس عشر

الفصل الأول

1- تجاور برسيا وسوسيانا بلاد الآشوريين، وهي التسمية التي يطلقونها على بابل وشطر كبير من المنطقة المحيطة بها، والتي تضمّ جزئياً، آثوريا حيث تقع نينوى، وأبوللونياتيدس، والعيلاميون، والباريتاكيون، وهالونيتيدا التي تقع حول جبل زاغروس، والسهول التي تحيط بنينوى، ودولومينا، وكالاهينا، وخازينا، وأديابينا، وقبائل ما بين النهرين القريبة من الغورديين والميغدونيين الذين حول نيسيبيدس وصولاً إلى زيغما[1] على الفرات؛ كما تضمّ أخيراً شطراً كبيراً من المنطقة الواقعة وراء الفرات والتي يشغلها العرب ومن يسمّيهم معاصرون بالسوريين [الذين أراضيهم] تمتدّ حتّى الكيليكيين، والفينيقيين، واليهود والبحر المواجه للبحر المصري وخليج إيّس.

2- ويهيّأ لي أن اسم سوريا لم ينسحب على المناطق التي تمتدّ من بابل حتّى خليج إيّس فقط، بل انسحب في الأزمنة القديمة على المناطق التي تمتدّ من هذا الخليج حتّى البحر الايفكسيني أيضاً. وعلى أيّ حال لا يزال الشعبان القبدوقيان (الذين على طوروس والذين على البونتس) يدعيان حتّى يومنا هذا «بالسوريين البيض»، كما لو كان هناك سوريون سوداً أيضاً. ويعيش هؤلاء السوريون وراء طوروس. وعندما أقول «طوروس»، فإني أمدّ هذه التسمية حتّى الأمانوس. وعندما يقول مؤرّخو الدولة السورية، إن الفرس أخضعوا الميديين، والميديون أخضعوا السوريين، فإنهم لا يقصدون بهذا إلى أيّ سوريين آخرين سوى السوريين الذين بنوا عاصمتهم في بابل ونينوى. وكان نينوس واحداً من هؤلاء السوريين، الذي أسّس مدينة نين[2] في آثوريا. وكانت زوجة نينوس هي سميراميس التي ورثت عرش زوجها؛ وقد أسّست هذه بابل. وامتلك كلاهما آسيا كلّها. أمّا فيما يتعلّق بسميراميس، فإنها علاوة على ما بنته في بابل من منشآت،

يدلّون على كثير من آثارها الأخرى الموزّعة في شتّى أنحاء الأرض، لأنها تدخل في هذه البرّ: التلال التي تدعى تلال سميراميس، والأسوار، والقلاع المزوّدة بأنابيب المياه، والأحواض المائية، والأدراج، والقنوات المحفورة في الصخور على الأنهار والبحيرات، والطرقات، والجسور. وقد ترك نينوس وسميراميس مملكتهما الكبرى لخلفائهما وصولاً إلى ساردانابال وأرباك. وفيما بعد انتقل العرش إلى الميديين.

3- وبعد سقوط المملكة السورية[3] مباشرة دمّرت نين. وقد كانت هذه المدينة أكبر من بابل، وكانت تقوم في سهل آثوريا. وتتاخم آثوريا هذه منطقة أربيل؛ وبين هاتين المنطقتين يجري نهر ليك. وتقع أربيل قبالة بابل، وهي تنتمي إلى هذه البلاد. وعلى ضفّة ليك الأخرى، حول نين، تقع سهول آثوريا. وفي آثوريا هذه تقع قرية غاوغاميلا، حيث هزم داريوس وخسر مملكته كلّها. وهذا المكان مكان شهير كاسمه، فترجمته تعني «مسكن الجمل». وكان داريوس ابن غستاب هو الذي أطلق عليها هذا الاسم؛ وقد منح داريوس هذه القرية ملكية خاصة للإنفاق على الجمل الذي ساعده على اجتياز طريقه المضنية عبر الصحراء السكيثية حاملاً على ظهره حملاً من المؤن للملك. ومع ذلك عندما رأى المقدونيون أن غاوغاميلا مجرّد قرية بائسة، وأن أربيل بلدة كبيرة (أسّسها كما يروى ، أربيلوس بن أثمونيوس)، أطلقوا روايتهم عن أن المعركة الظافرة وقعت على مقربة من أربيل، ونقلوا إلى المؤرّخين قصتهم على هذا النحو.

4- وبعد أربيل وجبل نيكاتوريوس[4] (هذا هو الاسم الذي أطلقه الإسكندر على هذا الجبل بعد النصر الذي تحقّق في معركة أربيل)، يقع نهر كابر الذي يجري بعيداً عن أربيل المسافة نفسها التي يبعد عنها نهر ليك. وتدعى هذه المنطقة أرتاكينا[5]. وتقع عند أربيل مدينة ديميتريادا؛ ثمّ يلي ذلك نبع نفطي، والنيران الجوفية، وحرم أنيا[6]، والساندراكي، وهو قصر داريوس بن غستاب، وكيباريسون ومعبر على نهر كابر، قرب بابل وسلوقيا.

5- وتقع بابل بدورها في سهل: يبلغ امتداد محيط أسوارها 385 مرحلة، وسماكتها 32 قدماً، وارتفاعها بين الأبراج 50 ذراعاً[7]، وارتفاع الأبراج نفسها 60 ذراعاً؛ والممرّ الذي فوق السور عريض إلى حدّ يكفي لسير مركبة تجرها أربعة جياد بسهولة ويسر. ولهذا يعدّ هذا السور والحديقة المعلّقة من عجائب الدنيا السبع. والحديقة المعلّقة لها شكل مربّع طول كلّ ضلع من أضلاعه الأربع 4 بليفرات؛ وتحمله أقواس

مقنطـرة يتوضّـع واحـدها فـوق الآخـر وتحملـها كلّهـا قواعـد وطيـدة مكعبـة الشـكل. والقواعـد مجوّفـة مـن الـداخل ومحشـوّة بـالتراب بحيـث تسـتوعب أشـجاراً كـبيرة؛ وقـد بنيت القواعد نفسها والقناطر مع الأقواس من الآجرّ المشـوي والإسـفلت. ويسـير الصـعود إلى الشرفات العليا على سـلالم مدرّجـة تتوضّـع علـى امتـدادها مضـخات حلزونيـة يضـخ الماء من الفرات عبرها إلى الحديقة من غير انقطاع أناس أسند هذا العمـل إلـيهم. فهنـاك نهر عرضه مرحلة يجري عبر وسـط المدينـة، والحديقـة تقـع علـى ضـفّة النهـر. وهنـا يقـع أيضاً ضريح بل الذي تحوّل الآن إلى ركام؛ ويقولـون إن كسـيراكس أزالـه. لقـد كـان ضريح بل هـذا هرمـاً مربـع الشـكل مبنيـاً مـن الآجـر المشـوي، ارتفاعـه مرحلـة واحـدة، وكذلك كان طول كلّ ضلع من أضـلاعه مرحلـة واحـدة أيضـاً. وقـد عـزم الإسـكندر في حينه على إعادة بناء هذا الهرم، لكنّ هذا كـان يتطلّـب جهـداً كـبيراً ووقتـاً طـويلاً (كـان تنظيـف المكـان مـن الركـام فقـط، يحتـاج إلى 10.000 عامـل يعملـون طـول شهرين)، ولذلك لم يتسـنّ للملك أن يكمل مشـروعه هـذا، إذ سـرعان مـا وقـع فريسـة المرض ومات. ولم يول أيّ من خلفائه اهتماماً لهذا المشـروع. بـل حتّـى مـا بقـي مـن المدينـة أُهمل تماماً، فهدم الفرس جزءاً منه، وهـدم الـزمن جزءه الآخـر، أضـف إلى هـذا اسـتهتار المقـدونيين بمثـل هـذه المنشـآت، خاصـة بعـد أن حصّـن سـلوقس نيكـاتور سـلوقيا دجلـة الواقعـة علـى بعـد 300 مرحلـة مـن بابـل تقريبـاً. فسـلوقس هـذا نفسـه، وكـذلك خلفـاؤه كلّهم أولوا اهتماماً كبيراً لسلوقيا ونقلوا مقرّ المملكة إليها. وباتت سلوقيا الآن أكـبر من بابل، وخلت هذه الأخيرة الآن من أكثر سكّانها، ولذلك نستطيع أن نسـحب عليهـا من غير تردد ما قاله أحد الشعراء الهزليين عن ميغالوبوليس[8] التي في أركاديا:

لقد صارت المدينة العظيمة الآن إلى صحراء عظيمة.

ويرغمهم نقص أخشاب البناء هنا علـى اسـتخدام ألـواح شـجر النخيـل وعوارضـه. فيطوّقون العوارض بحبال مجدولة من القصب، ثمّ يبيّضـونها بعـد ذلـك ويلوّنونهـا بشـتّى الألوان، أمّا الأبـواب فيطلونهـا بالإسـفلت. ويبنـون أبـواب منـازلهم عاليـة، ومثلـها منـازلهم نفسها أيضاً، وهذه الأخيرة كلّهـا مقببـة بسـبب نقـص الأخشـاب. فالشـطر الأكـبر مـن هذه البلاد خال من النباتات، ما عدا النخيل والأدغال الصـغيرة المبعثـرة. ففـي بابـل ينمـو النخيل بكثرة، وكثير منه في سوزا أيضاً، وعلـى سـاحل بيرسـيدا، وفي كارمانيـا. ولا يسـتخدمون القرميـد هنـا، لأنّ الأمطـار نـادرة. فمثـل هـذه الأبنيـة موجـودة في سـوزا وسيتاكينا.

6- لقد كرّسوا في بابل قرى خاصة لإقامة الفلاسفة المحلّيين الذين دعوهم كلدانيين، ويشتغل هؤلاء أكثر ما يشتغلون في علم الفلك. ويقدّم بعض هؤلاء أنفسهم منجّمين، مع أن الآخرين لا يعترفون لهم بهذا. وتوجد هناك قبيلة ما تدعى قبيلة الكلدانيين، ومثلها منطقة في بابل حيث يقطن هؤلاء، وهي تقع على مقربة مما يدعى عرب البحر الفارسي. وهناك عدد من سلالات الكلدانيين الفلكيين: واحدة منها تدعى الأورهينيين، والأخرى البورسيبيين، وعدد من السلالات الأخرى التي تحمل أسماء مختلفة؛ ويبدو هؤلاء كأنهم يتوزّعون على عدد من الفرق التي لها تعاليم مختلفة حيال المسائل عينها. ويأتي علماء الرياضيات على ذكر بعض هؤلاء الناس مثل كيدين، ونابوريان، وسودين. وسلوقس الذي من سلوقيا كلداني أيضاً، مثله كمثل عدد من الشخصيات الفذّة الأخرى.

7- وتعدّ بورسيبا مدينة أرطميس وأبوللون المقدّسة، وفيها ورش كبيرة لتصنيع الكتّان. وتعجّ هذه المدينة بأعداد لا حصر لها من الخفافيش، وخفافيش بورسيبا أكبر حجماً بكثير من خفافيش الأماكن الأخرى؛ ويصيد السكّان هذه الحيوانات ويستخدمونها في طعامهم، كما يملّحونها ويخزنونها.

8- ويحيط ببلاد البابليين من جهة الشرق السوسيون، والعيلاميون، والباريتاكيّون؛ ومن الجنوب، الخليج الفارسي والكلدانيون وصولاً إلى العرب الميسانيين؛ ومن الغرب عرب الخيام(9) حتّى أديابينا وغورديا؛ ومن الشمال الأرمن والميديون حتّى نهر زاغروس والقبائل التي تعيش بالقرب منه.

9- ويجري عبر هذه البلاد عدد من الأنهار؛ أكبرها نهرا الفرات ودجلة. ويقال إنّ هذين النهر يشغلان المكانة الثانية في منطقة جنوبي آسيا من حيث الحجم، بعد أنهار الهند. والنهران صالحان للملاحة صعوداً مع مجرييهما: دجلة صالح للملاحة حتّى أوبيس وسلوقيا المعاصرة (تعدّ مستوطنة أبيس مركزاً تجارياً لمنطقة الضواحي)؛ والفرات حتّى بابل على مسافة تزيد على 300 مرحلة. ولكنّ خوف الفرس من الاعتداءات الخارجية، ورغبتهم في إعاقة الملاحة صعوداً في هذين النهرين، دفعاهم إلى بناء شلالات صناعية هناك. ولمّا جاء الإسكندر عمل على هدم تلك الشلالات حيث كان ذلك ممكناً، خاصة على الطريق إلى أوبيس. كما اهتمّ الإسكندر بالقنوات. وتكمن المسألة هنا في أن الفرات يفيض صيفاً، وفي غضون ذلك تبدأ المياه تتدفّق منذ

فصـل الربيـع مـع ذوبـان الثلـوج في أرمينيـا ، ولـذلك يكـوّن النهـر بالضـرورة مسـتنقعات ويغمر الأراضي الزراعية ، إذا لم تسق المياه التي تخرج من ضفتي النهـر إلى السطح عبر خنـادق وقنـوات، تمامـاً كمـا يفعلـون مـع ميـاه النيـل في مصـر. ولهـذا الغـرض ظهـرت القنوات. ولكنّ الحفاظ على القنوات والعناية بها يتطلّبان جهوداً كبيرة. ويكمن الأمـر هنا في أنّ التربة هنـا عميقـة ورخـوة وهشّـة إلى درجـة تمكّـن النهـر مـن جرفهـا بسـهولة ، فتتعرّى السـهول، وتمتلئ القنوات بالطمي الـذي يغلـق المصبّات بسـهولة. وهـذا مـا يعيـد فيضان الماء ثانية في السهول الساحلية ، ويشكل البحيرات، والمستنقعات، وينبت أدغال القصب الذي يضفرون منه شتّى الأواني. وفي هذه الأواني التي يطلون بعضها بالإسفلت يمكن أن يسكب الماء، أمّا الأواني الأخرى فيستخدمونها غير مطلية. ويصنعون من القصب أيضاً، الأشرعة التي تشبه الحصر وما شابه من الأشياء.

10- وقد يكون تفادي مثل هكذا فيضانات أمراً غير ممكن، إلاّ أن واجب الحكّام الصالحين تقديم كلّ مساعدة ممكنة. وتتلخص هذه المساعدة في بناء سدود قوية تحجز الفيضان القوي، وتمنع امتلاء القنوات بالطمي عن طريق تنظيفها وفتح فوهاتها. والحقيقة إن تنظيف القنوات ليس عملاً صعباً، لكنّ بناء السدود يتطلب حشداً كبيراً من الأيدي العاملة. ولكن، بما أن التربة هنا رخوة وهشة، فهي عاجزة عن مقاومة ضغط الطمي المتراكم، فتجذبه إليها لتجعل إغلاق الفوّهات أمراً صعباً للغاية. وهذا يقتضي العمل بسرعة وعلى عجل لإغلاق القنوات حتّى لا يتسرّب الماء كلّه منها. فإذا جفّت مياه القنوات صيفاً، فإنها تجفف النهر أيضاً؛ إذ عندما ينخفض مستوى الماء في النهر، يغدو من الصعب جدّاً رفد القنوات بمياه الري في الوقت المناسب، بل وفي الصيف حينما يحرق القيظ التربة، تغدو هذه أحوج ما تكون إلى الري. ولكن الأمر سيان، سواء هلك المحصول بسبب كثرة المياه أو بسبب شحّها وقت الجفاف. وفي الوقت نفسه يغدو من غير الممكن تنظيم الملاحة الصاعدة مع النهر، والتي تدرّ منافع جمّى، إذ يدبّ فيها الإرباك دوماً للسببين المذكورين: إذا لم تغلق فوهات القنوات وتفتح في الوقت المناسب، وإذا لم يكن مستوى الماء في القنوات دائماً عند الحدّ الوسطي المطلوب، أي لا يتدفّق الماء [إليها] عبر الحواف، ولا يتسرّب منها كلياً.

11- وكما يروي أريستوبول، فإن الإسكندر صعد إلى الأعلى مع مجرى النهر وبرفقته حاشية كبيرة، وكان يقود السفينة بنفسه ويتفحّص القنوات ويأمر بتنظيفها؛

وعلى النحو نفسه أغلق فوهات وفتح أخرى. وإذ لاحظ أن فوهة إحدى القنوات يصعب الوصول إليها (وهي الفوّهة التي تتّجه أساساً نحو المستنقعات والبحيرات التي أمام العربية)، وليس من السهل إغلاقها، أمر بفتح فوهة أخرى جديدة عرضها 30 مرحلة؛ وقد اختار مكاناً تربته صخرية ساق المياه إليه. ولكنّه اتّخذ هذه الإجراءات لكي لا تغدو العربية حصينة منيعة على مهاجمتها عبر البحيرات والمستنقعات، لأنّ غزارة المياه تجعل من هذه البلاد جزيرة. وبحسب ما يقوله أريستوبول، إن الإسكندر كان ينوي الاستيلاء على العربية، وكان قد أعدّ الأسطول ونقاط الاستناد لحملته عليها، فبنى عدداً من السفن في فينيقيا وقبرص؛ وكانت هذه السفن مفككة إلى أجزاء ومجمّعة في حزم خشبية نقلت في سبعة أيام إلى فابساك، ومنها عبر النهر إلى بابل؛ أمّا باقي سفن الحملة فقد بناها في بابل من خشب السرو الذي ينمو أدغالاً في الحدائق: هذه البلاد تعاني من نقص في الأخشاب الصالحة لبناء السفن، مع أنّ منطقة الكوسيين وبعض المناطق الأخرى فيها ما يكفي من موارد الغابات. ويزعم أريستوبول، إن الإسكندر أعلن أنّ سبب الحرب هو أن العرب هم الشعب الوحيد على وجه الأرض الذي لم يرسل إليه سفارة، بيد أن السبب الحقيقي هو سعي الملك المقدوني للسيطرة على العالم. وعندما علم أن العرب لا يعبدون سوى الإلهين زيوس وديونيسيوس اللذين يهبان البشر ضرورات العيش كلّها، أمل أنه في حال ظفر بالنصر فإن العرب سيعبدونه إلهاً ثالثاً إذا ما منحهم استقلالية الأسلاف التي كانوا يتمتّعون بها من قبل. ويضيف هذا الكاتب قائلاً، على هذا النحو كانت اهتمامات الإسكندر حيال تجهيز القنوات، وعلاوة على ذلك كان يتقصّى بدقّة أضرحة الملوك والحكّام؛ فأكثر الأضرحة كانت تقع وسط البحيرات.

12- ويقول إيراتوسفين في سياق ذكر البحيرات الواقعة على مقربة من العربية، إن مياهها لمّا لم تجد مخرجاً لها، شقّت لنفسها معابر جوفية وجرت فيها حتّى كيليسوريا؛ وهناك تخرج إلى سطح الأرض في مكان قرب رينوكولورا وجبل كاسيوس لتشكل بحيرة وهاوية. بيد أنني لا أعرف على وجه اليقين ما إذا كان ما يقوله إيراتوسفين صحيحاً أم لا. فالحقيقة أن فيضانات الفرات تشكل بحيرات على مقربة من العربية، وثمّة مستنقعات قرب البحر الفارسي، لكنّ البرزخ الذي يفصل بينها ليس فسيحاً، وليس صخرياً، ولذلك فإن الظنّ بأن المياه هنا على وجه التحديد تندفع نحو البحر بقوّة (سواء تحت الأرض أو فوقها)، هو أمر أكثر معقولية من

الاعتقاد بأنها كانت تجتاز في مثل هذه الأرض الجافة الخالية من أيّ ماء، أكثر من 6000 مرحلة، عدّاك أنّ جبالاً تقع على طريقها هذه، خاصة جبال لبنان، وشرقي لبنان، وجبل كاسيوس. إنّ هذه هي أخبار أريستوبول وإيراتوسفين.

13- ولكنّ بوليكليتيس يزعم أنّ الفرات لا يفيض لأنه يجري عبر سهول شاسعة؛ بعض الجبال يبعد عنه 2000 مرحلة، بينما لا تبعد عنه الجبال الكوسية أكثر من 1000 مرحلة؛ وهذه الأخيرة ليست عالية، ولا تغطيها ثلوج عميقة، ولا تحدث فيها انهيارات ثلجية مفاجئة. وبحسب قوله، إن قمم هذه الجبال تقع في منطقة فوق إيكباتانا باتجاه الشمال، أمّا في المنطقة التي تتّجه جنوباً فإنها تتقسم ومع زيادة اتساعها تغدو أكثر انخفاضاً؛ وفي الوقت نفسه فإن الكمّ الأعظم من المياه يصبّ في دجلة، فتخرج المياه إلى خارج مجراه. ومن الواضح أن هذا الزعم الأخير زعم سخيف، لأنّ دجلة ينحدر من الجبال إلى السهول نفسها التي يجري الفرات فيها، وقمم الجبال المعنية ذات ارتفاعات متباينة: القمم الشمالية أعلى في بعض الأماكن، أمّا الجنوبية فإنها على العكس، إذ تمتدّ في أماكن ما عرضاً. أمّا الثلوج فلا تحدّد كمياتها القمم وحدها، بل عرضها أيضاً: على الجهة الشمالية للقمة عينها ثلوج أكثر مما على جهتها الجنوبية، وتبقى الأولى تحت الثلوج فترة أطول من الثانية. ودجلة يعبّ مياهه من ثلوج الأطراف الجنوبية من أرمينيا، وهي لا تبعد كثيراً عن بابل؛ وليست هذه الثلوج عميقة، لأنها تتحدر من الجهة الجنوبية ولذلك يفيض دجلة أقلّ. أمّا الفرات فيستقبل المياه من الجانبين وليس من جانب واحد، ومن جبال كثيرة، كما كنت قد بيّنت في وصف أرمينيا[10]. وقد أضفت في أثناء ذلك طول الفرات: في الأول، طول مجراه في أرمينيا الكبرى وأرمينيا الصغرى، ومن ثمّ طول مجراه من أرمينيا الصغرى وقبدوقيا عبر طوروس حتّى فابساك، حيث يفصل النهر سوريا الدنيا عن بلاد ما بين النهرين، وأخيراً، ما تبقّى من طوله حتّى بابل ومصبّه، ويشكل هذا كلّه 36000 مرحلة. وهذه هي معلوماتي عن قنوات بابل.

14- والشعير في هذه البلاد كثير أكثر من أيّ منطقة أخرى (يقال إن الشعير هنا يعطي ثلاثمئة ضعف بذاره)؛ والحاجيات الأخرى كلّها تلبيها شجرة النخيل، فهي تعطي الخبز، والنبيذ، والخلّ، والعسل، والدقيق؛ كما يصنعون من هذه الشجرة شتَّى أنواع المصنوعات المجدولة؛ ويستخدم الحدادون نوى ثمار النخيل بدلاً من الفحم؛ كما تدخل هذه النوى بعد طحنها في علف الثيران والغنم. ويقولون، إن هناك أغنية فارسية

يعدّدون فيها 360 طريقة لاستخدام النخيل. ويستخدم السكّان في غالب الأحيان زيت السمسم؛ ولكن وجود هذا النبات نادر في المناطق الأخرى.

15- وتتوفّر بابل على كميات ضخمة من الإسفلت. ويروي إيراتوسفين عن الإسفلت ما يلي: الإسفلت السائل يدعى نفطاً، وهو موجود في سوسيدا، والإسفلت الجاف الذي له خاصية التصلّب، موجود في بابل. ويقع منبع الإسفلت الجاف قرب الفرات. ولدى فيضان هذا النهر حينما تذوب الثلوج، يفيض منبع الإسفلت بدوره ويصبّ في النهر. فتتشكّل هنا كتل إسفلتية كبيرة يمكن استخدامها في إنشاء المساكن المبنية من الآجر المشوي. وعلى حدّ قول آخرين، إن في بابل إسفلت سائل أيضاً. ونحن كنا قد قلنا، إن الإسفلت الجاف يستخدم أكثر ما يستخدم في إنشاء المساكن، بيد أنهم يقولون، إن القوارب المضفورة من القصب والمطلية بالإسفلت لا يتسرّب إليها الماء. ويتميّز الإسفلت السائل الذي يدعى نفطاً بخاصيات طبيعية غريبة: إذا قرّبت النفط من النار فإنها تزداد اشتعالاً، وإذا ما دفعت بشيء ما مطلي بالنفط إلى النار فإنه يلتهب. ولا يمكن إطفاء النفط المشتعل بالماء (لأنه يزداد اشتعالاً)، إلاّ إذا سكبت عليه كميّة كبيرة منه، لكنّ إطفاءه ممكن إذا أخمد بالطين، أو الخلّ، أو الشبّ، أو زرق الطيور. ويقولون إنّ الإسكندر أمر بسكب النفط على أحد العبيد بهدف التجربة فقط، والاقتراب منه بمشعل ملتهب. وفي اللحظة عينها غطى اللهب جسد العبد وكاد أن يهلك لولا أن سكب الحاضرون عليه كميّة كبيرة من الماء. ويقول بوسيدونيوس، إنّ في بابل ينابيع من النفط، الأبيض منه والأسود. ويحتوي بعض هذه الينابيع، وأنا أعني هنا ينابيع النفط الأبيض، على كبريت سائل (فهذه الينابيع تجذب اللهب)، بينما تحتوي ينابيع النفط الأسود على الإسفلت السائل الذي يشعلونه في المشاعل بدل الزيت.

16- في الأزمنة القديمة كانت بابل عاصمة آشور؛ أمّا اليوم فعاصمتها هي سلوقيا، التي تدعى سلوقية دجلة. وعلى مقربة منها تقع مستوطنة كبيرة تدعى طيسفون. وقد جعل الملوك البارثيون من هذه المستوطنة عاصمتهم الشتوية لأنهم رأفوا بالسلوقيين خشية أن يتأذّوا من إقامة القبيلة السكيثية أو الجنود. لكنّ جبروت البارثيين حوّل طيسفون من مستوطنة إلى مدينة؛ وباتت هذه الأخيرة مدينة كبيرة فيها أعداد كبيرة من السكّان، وبنى فيها الملوك أنفسهم أبنية، وزوّدوها بالبضائع، واعتنوا بالعمل الحرفي والمواد الأولية اللازمة له. وفعلا، يقضي الملوك البارثيون فصل الشتاء هناك لأنّ مناخ المدينة لطيف ملائم؛ أمّا الصيف فيقضونه في إيكباتانا

وهركانيا إذ يؤثرون المجد الغابر الذي كان لهاتين الأخيرتين. وعلى النحو الذي ندعو نحن فيه هذه البلاد بابل، ندعو سكّانها أيضاً بابليين، ولكن لا على اسم المدينة، إنّما على اسم البلاد. لكننا نادراً ما ندعو سكّان سلوقيا على اسمها، حتّى لو كانوا من سكّانها الأصليين، كما هي حال الفيلسوف ديوجينوس الرواقي [11].

17- وتعدّ أرتيميتا مدينة مهمّة، وهي تقع على مسافة 500 مرحلة عن سلوقيا نحو الشرق مباشرة تقريباً، كما هي حال سيتاكينا. وهذه الأخيرة منطقة شاسعة خصبة تقع بين بابل وسوسيدا، بحيث تمتدّ كلّ طريق المسافرين من بابل إلى سوزا شرقاً عبر سيتاكينا. وباتجاه الشرق تمتدّ أيضاً طريق المسافرين من سوزا إلى المناطق الداخلية من بيرسيدا عبر أوكيسيا، ومن بيرسيدا إلى كارمانيا الداخلية. ومن الشمال تحيط بيرسيدا الشاسعة بكارمانيا. وتتاخم باريتاكينا بيرسيدا، كما تتاخمها أيضاً كوسيا حتّى البوابات القزوينية حيث تقطن قبائل جبلية من قطاع الطرق، وأخيراً تجاور عيلام منطقة زاغروس وميديا.

18- والكوسيّون، مثلهم مثل القبائل الجبلية المجاورة الأخرى، أكثرهم رماة سهام، ولا يمارسون سوى أعمال السلب والنهب. وبما أنهم يسكنون بلاداً صغيرة وفقيرة، كانوا مرغمين أن يعيشوا على أرزاق الآخرين. كما ينبغي عليهم أن يمتلكوا القوّة، لأنهم كانوا عن بكرة أبيهم مقاتلين. وعلى أيّ حال هبّوا لمساعدة العيلاميين في حربهم ضدّ البابليين والسوسيين، ومعهم جيش قوامه 13 ألف مقاتل. والحقيقة أن الباريتاكينيين يمارسون العمل الزراعي أكثر من الكوسيين، بيد أنهم لا يتعفّفون عن أعمال السلب والنهب. ويمتلك العيلاميون منطقة شاسعة ومتنوّعة أكثر من تلك التي يملكها الباريتاكينيون. ويسكن الفلاحون شطرها الخصيب كلّه، ويزرع المقاتلون شطرها الجبلي، وأكثر هؤلاء رماة سهام. ونظراً لامتداده الشاسع فإن هذا الشطر الجبلي يقدّم أعداداً كبيرة من الجنود تسمح لملكه الذي يتحكم بمثل هذه القوات الكبيرة ألاّ يرى أنه ملزم أن يخضع للملك البارثي بالدرجة نفسها التي يخضع بها له الملوك الآخرون. وقد كان هذا هو موقفه نفسه تجاه المقدونيين الذين كانوا فيما مضى يمتلكون سوريا. وفي أقلّ تقدير، عندما حاول أنطوخ الكبير أن ينهب معبد بل، قام البرابرة المجاورون بمبادرة منهم فهاجموه وقتلوه. وفيما بعد استخلص الملك البارثي العبرة مما حصل لأنطوخ، وكان قد سمع عن ثراء معبدهم ونزوعهم إلى الاستقلال، فاجتاح بلادهم بقوّات كبيرة. واستولى على معبد أثينا ومعبد أرطميس (وهذا الأخير

يدعى آزارا)، وسرق من هناك كنوزاً قدرها 10.000 تالانت. كما استولى على مدينة سلوقيا الكبيرة الواقعة على نهر جيديفون الذي كان يدعى من قبل سولوكا. وثمّة ثلاثة منافذ للوصول إلى هذه البلاد: من ميديا ومنطقة زاغروس عبر ماساباتيكا؛ ثمّ من سوسيدا عبر غابيانا (ماساباتيكا وغابيانا ولايتان من ولايات عيلام)، والثالث من بيرسيدا. وكوربيانا بدورها ولاية عيلامية. وعلى مقربة من هذه المناطق تقع أراضي الساغابيين والسيلاكينيين، وهي أملاك صغيرة. ومثل هذا العدد من القبائل التي لها الطابع نفسه، ينتشر إلى الأعلى من بابل أيضاً، نحو الشرق؛ وإلى الشمال، كما كنت قد قلت، تقع ميديا وأرمينيا، أمّا غرباً فتقع أديابينا وبلاد ما بين النهرين.

19- والشطر الأكبر من أديابينا أرض سهلية. ومع أنّ هذه المنطقة تعدّ جزءاً من بابل، إلاّ أنّ لها حاكمها الخاص؛ وفي بعض الأماكن تتاخم أرمينيا. ويعدّ الميديون، والأرمن، والبابليون أكبر القبائل في هذا الجزء من العالم، ومنذ البداية كانت العلاقات بينهم على النحو التالي: عندما كان يتسنّى لأيّ طرف أن يهاجم الآخر، لم يكن يتردد في فعل ذلك، ثمّ يتصالحون. وقد استمرّت هذه الحالة حتّى حلول السيطرة البارثية. والحقيقة أن البارثيين يسودون على الميديين والبابليين، لكنّ الأرمن لم يخضعوا لهم يوماً. ومن المعروف أن الأرمن عانوا من هجمات البارثيين مراراً، لكنّ هؤلاء كانوا يفشلون دائماً في الانتصار عليهم بالقوّة؛ بل قاومهم تيغيران مقاومة فعّالة، كما كنت قد تحدّثت لدى وصفي لأرمينيا(12). إنّ هذه السمات التي تتميّز بها أديابينا. ويدعى سكّان أديابينا ساكوبوديين أيضاً(13). وسوف أصف بلاد ما بين النهرين والقبائل الجنوبية الآن مباشرة بعد أن أقدّم عرضاً موجزاً لتقاليد الآشوريين.

20- إنّ تقاليد الآشوريين وعاداتهم تشبه على وجه العموم تقاليد الفرس وعاداتهم؛ لكنّ ما يتميّزون به هو تقليدهم بوضع ثلاثة حكماء على رأس كلّ قبيلة، فيُخرج هؤلاء إلى الشعب، البنات اللواتي بلغن سنّ الزواج، ويبيعونهنّ في صفقات تجارية تعقد مع الخاطبين، وأوّل ما يبدأ البازار ببنات العائلات الأرستقراطية. وعلى هذا النحو تبرم عقود القران هناك. وبعد المعاشرة الجنسية، يقف الزوج والزوجة بعد كلّ مرّة، كلّ على حدة، ويخرج ليحرق البخور. وفي الصباح قبل لمس أي إناء يغتسلان. ولديهم فعلاً عادة الاغتسال بعد كلّ تواصل جنسي، كما بعد لمس الميت. ونزولاً عند قول أحد المتنبّئين، ساد لدى الفتيات البابليات تقليد يقضي بممارستهنّ الجنس مع الغرباء إذا جئن إلى أي معبد من معابد أفروديت برفقة حشد كبير من

الخدم والناس. فتعقد كلّ امرأة حول رأسها ضفيرة من حبل. ثمّ يقود الرجل المهتمّ المرأة بعيداً عن حرم المعبد، ويضع على ركبتيها من المال ما يرى أنه كاف لها. وتعدّ هذه النقود مكرّسة لأفروديت. وعندهم ثلاث مؤسّسات قضائية عليا، ما عدا التي يعيّنها الملك. وتتألّف واحدة منها من أفراد كان قد تمّ إعفاؤهم من الخدمة العسكرية، وتتألّف الثانية من أفراد ينتمون إلى أعرق العائلات، وتتألّف الثالثة من الشيوخ. وواجب هذه [الهيئة] الأخيرة تزويج الفتيات والبتّ في شكاوى الزنى؛ وتعالج الأخرى دعاوى السرقة، والثالثة دعاوى العنف. لقد كانوا يخرجون بالمرضى إلى تقاطعات الطرق ويسألون عابريّ السبيل عمّا إذا كانوا يعرفون وسيلة ما لمداواة المرض المعني؛ ولن تجد بين عابريّ السبيل من يمتنع عن إبداء النصح إذا كان على علم بأيّ وسيلة مداواة. وتتألّف ملابس البابليين من رداء كتانيّ طويل يصل إلى القدمين، ورداء خارجي مصنوع من الصوف، ووشاح أبيض، ويطلقون شعرهم طويلاً، وينتعلون أحذية تشبه الخفّ. ويحملون خواتم عليها أختام، كما يحملون عصيّاً، لكنّها غير مصقولة وعليها من فوق رسم تفاحة أو وردة، أو سوسنة، أو شيء من هذا القبيل. ويتدّهن البابليون بزيت السمسم. ويبكون الأموات، كما يفعل المصريون وكثير من الشعوب الأخرى؛ ويدفنونهم في العسل بعد طلائهم بالشمع. وعندهم ثلاث قبائل لا أقماح عندها. وهم سكّان المستنقعات الذين يقتاتون على الأسماك، ويشبه نمط عيشهم نمط عيش سكّان هدروسيا.

21- لقد أخذت بلاد ميزوبوتاميا[14] اسمها من موقعها. وأنا كنت قد قلت، إن هذه المنطقة تقع بين دجلة والفرات؛ ولا يشاطئ دجلة سوى جهتها الشرقية، بينما يشاطئ الفرات جهتها الغربية وجهتها الجنوبية؛ وفي الشمال يعلو طوروس الذي يفصل أرمينيا عن ما بين النهرين. وأكبر مسافة تفصل بين هذين النهرين تقع عند الجبال. وقد تكون هذه المسافة هي المسافة نفسها التي حدّدها إيراتوسفين من فابساك (قديماً كان هناك جسر على الفرات) حتّى معابر دجلة التي اجتاز الإسكندر النهر عبرها - 2400 مرحلة. أمّا أقصر مسافة بين هذين النهرين فهي تقع في مكان ما قرب سلوقيا وبابل، وتشكّل أكثر من 200 مرحلة بقليل. ويجري دجلة نحو اتّساعه وسط بحيرة تدعى ثوبيتيدا. وإذ يبلغ الشاطئ المقابل من البحيرة، يغور النهر تحت الأرض بصخب مريع نافثاً الزبد والغبار المائي؛ وبعد أن يجتاز تحت الأرض مسافة طويلة، يظهر دجلة من جديد إلى سطح الأرض في مكان غير بعيد عن الغورديين. ويقول إيراتوسفين، إن

النهر يجتاز البحيرة باندفاع يجعل مياهها في مكان عبوره عذبة جارية كمياه النهر، وتملؤها الأسماك، بينما تبقى مياه البحيرة في الأماكن الأخرى مالحة وخالية من الأسماك.

22- وإذ تأخذ منطقة ما بين النهرين شكلاً متضيّقاً يشبه شكل السفينة، فإنها تبرز إلى الأمام على امتداد كبير. ويشكّل الفرات الشطر الأكبر من محيطها. وبحسب إيراتوسفين أنّ المسافة من فابساك إلى بابل تبلغ 4800 مرحلة، أمّا المسافة من زيغما في كوماجينا (عند بداية ما بين النهرين) إلى فابساك، لا تقلّ عن 2000 مرحلة.

23- والمنطقة التي تمتدّ على طول الجبال منطقة خصبة. ويشغل أجزاء هذه المنطقة التي تقع على مقربة من الفرات والجسر (عند الجسر المعاصر في كوماجينا وعند الجسر القديم عند فابساك)، الميغدونيون الذين دعاهم المقدونيون باسمهم هذا. وفي بلادهم تقع نيسيبيدا التي يدعونها أيضاً أنطاكيا التي في ميغدونيا. وتقع هذه المدينة على سفح جبل ماسوس، وكذلك أيضاً تيغرانوكيرتا، ومناطق كارّا، ونيسيفوريا، وهورديراز، وسينّاك، حيث قتل كراسوس[15]، الذي وقع أسيراً لدى القائد البارثي سورينا، إثر مؤامرة دنيئة حيكت ضدّه.

24- وتقع على مقربة من الفرات مناطق الغورديين الذين دعاهم الإغريق كاردوخي؛ وكانت مدنهم هي: ساريسا، وساتالكا، وبيناكا، وهي قلعة قوية فيها ثلاثة أكروبوليسات يحيط بكلّ منها سور، فتبدو كأنها تشكّل مدينة ثلاثية. ولكنّ هذه المدينة الأخيرة لم يخضعها الملك الأرميني فقط، بل استولى عليها الرومان عنوة أيضاً، غير عابئين بكون الغورديين من أكثر الشعوب مهارة في بناء التحصينات وأكثر خبرة في صناعة آليات الحصار، ولذلك هم الذين كانوا يؤدّون هذه الأعمال لدى تيغران. كما سقط الشطر المتبقي من منطقة ما بين النهرين تحت سيطرة الرومان أيضاً. وقد أعطى بومبييوس الشطر الأكبر منها لتيغران، وتحديد الأماكن التي كانت لها أهمية تذكر. وهذه البلاد غنية بالمراعي والنباتات إلى درجة أن الشجر الدائم الخضرة ونبات الآموم[16] العطري ينموان فيها. كما تسرح الأسود هناك أيضاً، ويستخرج النفط، وحجر الفانهيتيد[17]، الذي تهرب منه الزواحف.

25- ويروى أنّ غورديوس ابن تريبتوليموس استوطن غوردييـنا؛ وفيما بعد جاء الإرتريون الذين أسرهم الفرس وسكنوا هنا أيضاً. وسوف أتحدّث عن تريبتوليموس عندما سأصف سوريا[18].

26- إنّ أجـزاء مـا بـين النهـرين الـتي تتّجـه نحـو الجنـوب والبعيـدة أكثـر عـن الجبال، هي مناطق قاحلة لا ماء فيها، ويشغلها العرب سكّان الخيام، وهم قبيلة من قطّاع الطرق والرعاة الذين ينتقلون بسهولة ويسر من مكان إلى آخر عندما تشحّ المراعي أو الطرائد. وعلى هذا النحو لا يعاني سكّان المناطق الممتدة على طول الجبال من الأذى الذي يتسبب لهم به سكّان الخيام فقط، بل يعانون أيضاً من الأرمن الذين يقطنون إلى الأعلى منهم ويضيّقون عليهم بقوتهم الجبّارة. وفي نهاية المطاف خضع أكثرهم للأرمن أو للبارثيين، لأنّ البارثيين أيضاً يعيشون على أطراف هذه البلاد إذ يمتلكون ميديا وبابل.

27- ويجري بين الفرات ودجلة نهر آخر، هو نهر باسيلييوس، وعلى مقربة من أنفيموسيا يجري نهر آخر هو نهر آبورّا. وبالنسبة لمن يتوجّه من سوريا إلى سلوقيا وبابل، تمرّ طريقه عبر منطقة ساكني الخيام (الذين يدعوهم بعضهم الآن ماليين)، وعبر صحرائهم. ويتوجه عبر الفرات عابرو السبيل على مقربة من أنفيموسيا، ومناطق في منطقة ما بين النهرين. وعلى بعد 4 سخينات فوق النهر تقع بامبيكا التي تدعى أيضاً أديسا وهيرابوليس(19)؛ وهنا يتعبّدون الإلهة السورية أتارغاتيس. وبعد المعبر تمتدّ الطريق عبر الصحراء حتّى سكينا، وهي مدينة كبيرة تقع على قناة تتّجه نحو حدود بابل. والمسافة من المعبر إلى سكينا 25 يوماً على طريق القوافل. وعلى هذه الطريق جمّالون أصحاب نزل صغيرة تحتوي أحياناً على أحواض مائية كبيرة، هي عادة عبارة عن صهاريج، مع أن الجمالين يلجؤون أحياناً إلى نقل الماء. وسكّان سكينا أناس مسالمون ولا يجبون سوى إتاوات معتدلة، وهذا ما يجعل التجار يتفادون المنطقة الممتدّة على طول النهر ويغامرون باجتياز الصحراء تاركين النهر على يمينهم مسافة ثلاثة أيام. فزعماء القبائل التي تقطن على جانبي النهر يملكون أراض فقيرة، لكنّها أقلّ فقراً من أراضي الآخرين؛ زد إلى هذا أنّ كلاً منهم يتمتّع بسلطة مستقلّة وله نقطة خاصة لجباية الإتاوات التي لا تعدّ إتاوات متهاودة. والحقيقة أنه يبدو من الصعب تحديد معيار إتاوة عام ملائم للتجار يأخذ به هؤلاء الطامعون كلّهم، الذين يتسمون إضافة إلى هذا بالتعسف والاستبداد. وتقع سكينا على بعد 18 مرحلة عن سلوقيا.

28- ويشكل الفرات والمناطق الواقعة على الجانب الآخر منه، حدود الدولة البارثية. أمّا الأراضي الواقعة على هذا الجانب منه، فهي للرومان ولزعماء القبائل العربية وصولاً إلى بابل؛ وبعض هؤلاء الزعماء أكثر ميلاً إلى البارثيين، بينما بعضهم

الآخر أكثر ميلاً إلى الرومان الذين يجاورونهم؛ ويتخذ الرحّل سكّان الخيام الذين يقيمون على مقربة من النهر موقفاً أقلّ وداً تجاه الرومان، لكنّ الذين يعيشون بعيداً عن النهر وعلى مقربة من العربية السعيدة، أكثر ميلاً نحوهم. أمّا البارثيون فقد سعوا من قبل إلى إقامة علاقات «صداقة»[20] مع الرومان، بيد أنهم أرغموا على الدفاع عن أنفسهم ضدّ كراسوس الذي بدأ حرباً معهم[21]. وعلى أيّ حال فقد حلّ بهم المصير نفسه حينما بدأوا الحرب هم أنفسهم وأرسلوا باكور[22] ضدّ آسيا. لكنّ أنطونيو الذي أخذ بمشورة الملك الأرميني[23]، وقع ضحية خيانة هذا الأخير له وخسر الحرب. أمّا فرآت خليفة باكور، فقد بلغ حماسه لنيل «صداقة» قيصر أغسطس حداً دفعه إلى أن يرسل له النصب التذكاري الذي أقامه البارثيون تخليداً لذكرى انتصارهم على الرومان. ولمّا دعا فرآت حاكم سوريا الروماني، تيتوس عندئذٍ، لإجراء مفاوضات معه، سلّمه أبناءه الشرعيين الأربعة رهائن: سيراسباذان، وروداسب، وفرآت، وبونون، ومعهم زوجتاه وأبناؤهما الأربعة؛ [وقد فعل هذا] خشية القلاقل والاغتيال. لقد كان الملك البارثي يدرك تماماً أنّ أحداً لا يستطيع محاربته من غير عون أحد من سلالة الأرساكيديين، لأنّ البارثيين مخلصون إخلاصاً فريداً لهذه السلالة. ولذلك أبعد أبناءه لكي يضع حداً لآمال الذين يضمرون الشرّ له. وكان أبناؤه الذي بقوا على قيد الحياة يعيشون في روما على نفقة الدولة محاطين بالتشريفات الملكية. كما كان الملوك البارثيون[24] الآخرون يسرعون لإرسال سفارات إلى روما، ويأتون لإجراء مفاوضات [مع الحكّام المحلّيين].

الفصل الثاني

1- تتاخم سوريا في الشمال كيليكيا وجبل الأمانوس. والمسافة من البحر إلى جسر الفرات (من خليج إيسّ إلى الجسر الذي في كوماجينا)، الذي يشكّل حدّ الجهة المذكورة، ليست أقلّ من 1400 مرحلة. وفي الشرق يشكل الفرات ومنطقة عرب الخيام على هذا الجانب من الفرات، حدود سوريا؛ وتشكّل العربية السعيدة، ومصر حدودها الجنوبية؛ والبحر المصري، والسوري حتّى إيسّ، حدودها الغربية.

2- وأنا آخذ أجزاء سورية ابتداء من كيليكيا وجبل الأمانوس: وهي كوماجينا، وما يدعى «سلوقيا السورية»، وكيليسوريا، وأخيراً على الساحل، فينيقيا، وفي داخل البلاد- اليهودية. ويقسم بعضهم سوريا كلّها إلى بلاد

الكيليسـوريين، والسـوريين، والفينيقـيين ويزعمـون، أنّ أربـع قبائـل أخـرى تخـتلط مـع هذه القبائل، هـي: اليهود، والإيدوميون، والغزّيون، والآزوتيون؛ وبعـض هـؤلاء فلاّحـون: السوريون والكيليسوريين، وبعضهم الآخر تجار: الفينيقيون.

3- هذه هي معلوماتنا عن سوريا على وجه العموم. أمّا فيما يخصّ أجزاءها كلاً على حدة، فـإنّ كوماجينـا ليسـت منطقـة كـبيرة جـدّاً؛ وفيهـا مدينـة ساموسـاتا الـتي حصّنتها الشـروط الطبيعيـة نفسـها، وهنـا في هـذه المدينـة كانـت العاصـمة الملكيـة. ولكـنّ كومّاجينـا تحـوّلـت الآن إلى ولايـة رومانيـة. والأرض الـتي تحـيط بالمدينـة شـديدة الخصـوبة، لكنّهـا ليسـت كافيـة. ويقـع هنـا الآن جسـر علـى الفـرات؛ وعلـى مقربـة مـن الجسـر تقـع سـلوقيا الـتي تعـدّ قلعـة بـلاد مـا بـين النهـرين الـتي ضـمّها بومبييـوس إلى كومّاجينا. وهنا أعدم تيغـران سـيلينا الملقبـة كليوبـاترا، بعـد أن سـجنها لـبعض الوقـت إثر طردها من سوريا.

4- وتعدّ سلوقيا أفضل أجزاء سورية، وليس هذا وحسب، بل تدعى (وهـي فعلاً) تيترابوليس[1] تبعاً لعدد المدن الموجودة فيها. والحقيقـة أن مـدنها معـدودة لكنّهـا كـبيرة وعددها 4: أنطاكيا التي قرب دافنـا، وسـلوقيا الـتي في بيرييـا، وأفاميـا، ولاوديكييـا. وقد دعيت هذه المدن بالأخوات، بسبب الوفاق الذي كان سائداً بينهـا؛ وكـان سـلوقس نيكـاتور هو من بنى هذه المدن الأربع. ودعا أكبرهـا[2] باسـم والـده، والأكـثر تحصـيناً دعاها باسمه هو، ودعا أفاميـا باسـم زوجتـه أبامـا، ولاوديكييـا باسـم والدتـه. وبحسـب بوسـيدونيوس أنّ سـلوقيا قسـمت تبعـاً لمـدنها الأربـع إلى أربـع ولايـات، كمـا قسـمت كيليسـوريا إلى العـدد نفسـه مـن الولايات مـع أن منطقـة مـا بـين النهـرين كلّهـا كانـت ولاية واحدة[3]. وكـانت أنطـاكيا بدورهـا تيترابوليس، لأنها تتألّف من أربعة أجزاء؛ فهـي محاطة بسور واحد مشترك، كمـا كـانت كـلّ مسـتوطنة مـن هـذه المسـتوطنات محاطـة بسور خاص بهـا. وكـان نيكـاتور هـو الـذي أسّـس المسـتوطنة الأولى وجاءهـا بالسـكّان مـن أنتيغونيـا الـتي كـان أنتيغـون بـن فيليـب قـد أسّسـها علـى مقربـة منـذ بعـض الوقـت؛ وأسّسـت المسـتوطنة الثانيـة جماعـة مـن المسـتوطنين، وأسّـس المسـتوطنة الثالثـة سـلوقس كاللينيكـوس، والرابعة أنطوخ أبيفانوس.

5- وعـلاوة علـى هـذا فـإن أنطاكيـا هـي عاصـمة سـوريا، فقـد اسـتقرّت هنـا عاصمة مملكـة حكّام البلاد. ولا تقلّ أنطاكيـا مـن حيـث القـوة والحجـم عـن سـلوقية دجلة أو إسـكندرية مصـر. لقد أسـكن نيكـاتور هنـا أحفـاد تريبتوليمـوس الـذي كنـت

قد أتيت على ذكره منذ بعض الوقت[4]. ولهذا يبجّل الأنطاكيون تريبتوليموس كبطل ويقيمون احتفالاً على شرفه فوق كاسيوس (جبل الأقرع - ح. إ.) قرب سلوقيا. ويروى أنّ الآرغوسيين أرسلوه ليبحث عن إيو التي اختفت أوّلاً في صور، وتاه هو في كيليكيا. وهنا أسّس بعض مرافقيه الذين تركوه مدينة تارس. وتبعه الباقي حتّى أقرب شاطئ، ولمّا فقدوا الأمل في العثور على إيو استقرّوا معه في منطقة تقع عند نهر العاصي. فاستوطن غورديوس بن تريبتوليموس وبعض مرافقي والده في غورديا، وعاش أحفاد الباقين مع الأنطاكيين.

6- وعلى بعد 40 مرحلة فوق أنطاكيا تقع دافنا، وهي مستوطنة متوسطة الحجم فيها دغل كبير وارف الظلال تجري فيه ينابيع؛ وفي وسط الدغل أرض مقدّسة فيها ملجأ وحرم لأبوللون وأرطميس. وجرت العادة أن يحتفل الأنطاكيون وجيرانهم هنا بعيد شعبي. امتداد محيط الدغل 80 مرحلة.

7- وعلى مقربة من المدينة يجري نهر العاصي. وينبع هذا النهر من كيليسوريا، ثمّ يغور تحت الأرض ويظهر على سطحها من جديد، ويجتاز بعد ذلك أرض الآفاميين ليصل من ثمّ إلى منطقة أنطاكيا ليقترب من المدينة مباشرة ويصبّ في البحر على مقربة من سلوقيا. وكان هذا النهر يدعى من قبل تيفون، لكنّه أُعطي بعد ذلك اسم أورونت الذي بنى عليه جسراً. وفي مكان على مقربة من هنا دارت احداث قصص ميثولوجية ترتبط بهزيمة تيفون بضربة صاعقة، وأخرى ترتبط بالأريميين الذين أتيت على ذكرهم من قبل[5]. فقد رووا إنّ تيفون (وكان هذا تنيناً) الذي أصيب بصاعقة بحث عن ملجأ له هنا تحت الأرض؛ ولم يكتف في أثناء ذلك بتخديد الأرض وشقّ مجرى النهر، بل غار تحت الأرض وأرغم الينابيع على أن تتفجّر فوق سطحها، ومن هذا أخذ النهر اسمه. وغرباً تحت أنطاكيا، قبالة سلوقيا يقع البحر؛ وعلى مقربة من سلوقيا يشكل العاصي مصبّاته. وعلى بعد 40 مرحلة من مصبات النهر، و20 مرحلة من أنطاكيا، تقع سلوقيا. وتستغرق الرحلة من البحر صعوداً مع النهر إلى أنطاكيا يوماً واحداً. وإلى الشرق من أنطاكيا يجري الفرات، وتقع بامبيكا، وبيرييا، وهيراقليا، وهي مدن صغيرة كان يحكمها في زمن ما التيران ديونيسيوس بن هيراكليون. وتقع هيراقليا على مسافة 20 مرحلة من حرم أثيناكيرايستيدس.

8- ثمّ تمتدّ بعد ذلك كيريستيكا حتّى حدود منطقة أنطاكيا مباشرة. وفي الشمال، على مقربة منها يعلو جبل الأمانوس وتقع كومّاجينا. وتتاخم كيّريستيكا

هـذه المنـاطق إذ يصـل امتـدادها حتّـى حـدودها مباشـرة. وتقـع هنـا هينـدار الـتي تعـدّ أكروبوليس كيّريستيكا، ومأوى لقطاع الطرق محصناً تحصيناً طبيعياً؛ وغير بعيد من هنا يقع مكـان مـا يـدعى هيراقليا. وعنـد هـذه الأمـاكن قتل وينتيـديوس بـاكور، الابن الأكبر للملك البارثي، عندما شنّ هذا حملة على سوريا[6]. وتتاخم هينـدار حصـن باغرا الذي يعود لمنطقة أنطاكيا؛ ويقـع هـذا الحصـن الـذي حصّنته الطبيعـة عنـد معبر جبل الأمانوس الذي يقود من البوابات الأمانوسية إلى سوريا. وينبسـط تحت بـاغرا سـهل الأنطاكيين الذي يجري فيه نهر أركيفث، ونهـر العاصـي، ونهـر لابوتـا. ويقـع في هـذا السهل أيضاً حصن ملياغروس الذي يحيط بـه سـياج مـن الأوتـاد المروّسـة، كمـا يجـري فيه نهر إينوبـارا، حيـث انتصـر بطليمـوس فيلوميتـور في معركتـه مـع الإسـكندر بـالا، لكنّه مات متأثراً بجراحه[7]. وتعلو فـوق هـذه الأمـاكن هضـبة ترابيزونـت (الـتي دعيـت بهـذا الاسـم لأنّ شـكلها يشـبه الطاولـة)، حيـث قاتـل وينتيـديوس، القائـد البـارثي فرانيكـات[8]. وهنا غير بعيد عـن البحـر تقـع سـلوقيا، ويرتفـع بييريـا، وهـو جبـل متـاخم للأمانوس، وتقع مدينة روس بين إيس وسلوقيا. وكانت سلوقيا تـدعى في الـزمن القـديم هيداتوس- بوتاما[9]. وتعدّ المدينة قلعـة كـبيرة قويـة إلى درجـة تستعصـي علـى كـلّ قـوّة؛ ولذلك فصل بومبييوس بينها وبين تيغـران وأعلنهـا مدينـة حـرّة. وإلى الجنـوب مـن منطقـة الأنطاكيين تقع أفاميا في داخل البلاد، وإلى الجنوب من المنطقـة السـلوقية يرتفـع جبـل كاسيوس وجبل أنتيكاسيوس. وتقع إلى الأبعد من سلوقيا مصبّات نهـر العاصـي؛ يليهـا نيمفييوس، وهو مكـان مـا يشـبه الكهـف المقدّس، وبعده كـاسيوس، ثـمّ بعـده مباشـرة مدينة صغيرة تدعى بوسيديوس، ومدينة هيراقليا.

9- وتأتي بعد ذلك لاوديكييا، وهي مدينة ساحلية مبنية بناء فنّيـاً ملفتـاً، وفيهـا مينـاء بديعــة؛ ومنطقــة المدينــة غنيــة بــالغلال، وغنيــة جــدّاً بالنبيــذ. فهــي تصــدّر للإسـكندريين الكـمّ الأكـبر مـن النبيـذ الـذي يحتاجونـه، لأنّ سـكّانها زرعـوا كـلّ الجبـل الـذي يرتفـع فـوق المدينـة وصـولاً إلى قممـه بالكرمـة. وهـذه القمـم تبعـد عـن لاوديكييا مسافة بعيدة، وهي تصعد ببطء وشيئاً فشيئاً نحو الأعلى، بينمـا ترتفـع فـوق أفاميا بشكل شاقولي. وقد تسبب دولابيلا للاوديكييا بكثير مـن الأذى عنـدما هـرب إليها باحثاً عن ملجأ. فحاصر كاسيوس دولابيلا هنا حتّى لقي هذا الأخير حتفـه، وقـد دمّرت مع دولابيلا في أثناء الحصاره أجزاء عديدة من المدينة[10].

10- ويوجـد في أفاميـا أكروبـوليس[11] أيضـاً، وهـو علـى وجـه العمـوم مسـيّج

جيّداً. إنه هضبة محصنة تحصيناً رائعاً، وتعلو فوق سهل مجوّف. وقد جعل نهـر العاصـي والبحيرة الكبيرة التي تحيط بالسهل، جعلا منه شبه جزيرة؛ وحينما تفيض البحيرة تتحوّل إلى مستنقعات شاسعة، ومروج عظيمة الأبعاد تشكل مراعياً للمواشي والخيول. وعلى هذا النحو تستقرّ المدينة آمنة (لقد دعوها كيرسونيس[12] تبعاً لطابع المكان). وتتوفّر على أراض شاسعة وخصبة يجري عبرها نهر العاصي، ويتبع لها كثير من المدن الصغيرة. وهنا كان سلوقس نيكاتور يأوي 500 فيل وينشر الجزء الأكبر من قوّاته، وهذا ما فعله الملوك الذين جاؤوا بعده أيضاً. وفي زمن ما، دعا المستوطنون الأوائل- المقدونيون- هذه المنطقة بيلاّ، لأنّ أكثر المقدونيين الذين شاركوا في الحملة استقرّوا هنا، ولأن بيلاّ، وهي مسقط رأس فيليب والإسكندر، غدت بمثابة متروبوليا المقدونيين. وتوضّعت هنا أيضاً، الإدارة العسكرية وإدارة تربية الخيول، حيث كانت تسرح هنا أكثر من 30.000 مهرة و300 مهر تابعة كلّها للقصر الملكي. كما كان يقيم هنا مروّضو الخيول أيضاً، والمقاتلون الذين تدرّبوا على التعامل مع الأسلحة الثقيلة، وكلّ مدرّبي شتّى الفنون القتالية المأجورين. وليس أدلّ على قوّة أفاميا من علوّ شأن تريفون الملّقب ديودوت، ومحاولته الاستيلاء على عرش سوريا، لقد حوّل هذا أفاميا إلى نقطة استناد. والحقيقة أنّ تريفون ولد في كاسيانا، في أحد حصون منطقة أفاميا، ونشأ وتربّى في أفاميا ثمّ قدم إلى الملك والحاشية الملكية. ولمّا عزم على إعلان الانتفاضة تلقى موارده من هذه المدينة والمدن الصغيرة التابعة لها - من لاريسا، وكاسيانا، وميغارا، وأبوللونيا وسواها من الأماكن الأخرى؛ فهذه كلّها كانت تؤدّي الإتاوة لأفاميا. وعلى هذا النحو أُعلن تريفون ملكاً على هذه البلاد، وقد نجح في الحفاظ على سلطته عليها طويلاً. وأعلن سيسيلييوس باسوس على رأس اثنتين من الكوغورتات القتالية انتفاضة في أفاميا؛ فحاصرته بعد ذلك وحدتان قتاليتان رومانيتان كبيرتان، لكنّه أبدى مقاومة صلبة ومديدة، ولم يضع نفسه تحت سلطة الرومان إلاّ مختاراً ووفق الشروط التي وضعها هو نفسه. ويكمن سرّ المسألة هنا في أنّ هذه البلاد كانت تزوّد قوات باسوس بالمؤن، كما كان عنده كثير من الحلفاء بين زعماء القبائل المجاورة، الذين كانوا يملكون مواقع محصّنة تحصيناً جيّداً. ومن هذه الأخيرة، ليسيادا الواقعة فوق البحيرة على مقربة من أفاميا، وأريفوسا التي استولى عليها سامبسكيرام وابنه يامبليخ زعيما قبيلة الإيميسينيين؛ وعلى مقربة كانت تقع أيضاً هيليوبوليس وخلكيدا التي كانت تحت سلطة بطليموس بن مينّييوس الذي

استولى على ماسيوس ومنطقة الإيتوريين الجبلية. وكان بين حلفاء باسوس ألحيدامن، ملك الرامبيين، وهم رحّل يتنقلون على هذا الجانب من الفرات. وكان هذا من قبل «صديقاً»[13] للرومان، لكنّه رأى أن الحكّام الرومان لا يعدلون في التعامل معه، فاعتزل في وادي الرافدين، ثمّ عمل مقاتلاً مأجوراً لدى باسوس. ومن أفاميا خرج الرواقي بوسيدونيوس، وهو الفيلسوف الأكثر علماً في زمننا هذا.

11- وتجاور أفاميا من جهة الشرق بلاد تدعى بارابوتاميا، وهي منطقة لزعماء القبائل العربية، كما تجاورها هنا أيضاً خلكيس، وهي موقع يمتدّ من ماسيوس، والشطر الأعظم من كلّ البلاد الواقعة إلى الجنوب من الأفاميين هو لسكّان الخيام. ويشبه هؤلاء رحّل بلاد ما بين النهرين. ودائماً تعدّ الأقوام التي تعيش قريباً من السوريين أقواماً أكثر ثقافة، أمّا العرب وسكّان الخيام فهم أقلّ تحضّراً. فبناء الدولة عند أولئك أفضل منه في أريفوسا مثلاً، التي يحكمها سامبسيكيرام؛ وفي أملاك غامبار وفيميلا وسواهما من الزعماء القبليين الآخرين.

12- إن هذا هو الجزء الداخلي من المملكة السلوقية. أمّا ما تبقى فهو الساحل، بدءاً من لاوديكيبيا، وهو على النحو الآتي: غير بعيد عن لاوديكيبيا تقع مدن صغيرة، هي بوسيديوس، وهيراقليا، وجبالا؛ ويلي بعد ذلك ساحل الأراديين حيث تقع بالت، وبالانيا، وكارن؛ وهذه الأخيرة هي محطة أراد الشراعية وفيها ميناء. ويلي ذلك إينيدرا، ومارات، وهي مدينة فينيقية قديمة، صارت الآن إلى أطلال. فاقتسم منطقتها الأراديون وسيميرا بالتساوي. وتجاور هذه الأماكن أورفوسيا وإيليثير، وهو نهر يجري على مقربة، ويرى فيه بعضهم حدود المملكة السلوقية مع فينيقيا وكيليسوريا*.

13- وتقع أراد أمام شاطئ صخري خال من الموانئ، تماماً في الوسط بين محطتها الشراعية ومارات على بعد 20 مرحلة من البرّ. وهي صخرة يحيط بها البحر، امتداد محيطها 7 مراحل؛ وعليها كثير من المساكن. ولا تزال أعداد سكّان أراد كثيرة حتّى يومنا هذا، ولكثرة أعدادهم يقيم هؤلاء في منازل متعددة الطوابق. ويروى أن منفيين من صور هم الذين أسّسوا المدينة. ويحصل سكّان أراد على الماء جزئياً من مياه المطر والخزانات المائية، وجزئياً من الشاطئ المقابل. وفي زمن الحرب يأتون بالماء من مضيق يقع أمام المدينة على مقربة؛ ففي هذا المضيق ينبوع ماء عذب وغزير. فيرمون

* أي سوريا المجوّفة، وهي المنطقة الممتدة بين سلسلة جبال لبنان الغربية والشرقية؛ أي سهل البقاع الآن. - ح. إ.

في هذا الينبوع من على القارب الذي يبحرون فيه طلباً للماء قمعاً واسع العنق مصنوعاً من الرصاص؛ ويتضيّق القمع في قسمه الأعلى حتّى قاعدته، حيث فيه فتحة متوسطة الحجم. وفي قاعدة القمع أنبوب جلديّ (أو إذا صحّ القول منفاخ) يستقبل الماء المدفوع من الينبوع إلى الأعلى عبر القمع. ويُدفع في الأوّل ماء البحر؛ فينتظر المستقون حتّى يصل ماء الينبوع ليسكبوا منه ما يملأ الأواني التي حملوها معهم، ثمّ يعودون إلى المدينة.

14- لقد كان يحكم الأراديين في الزمن القديم ملوك مستقلّون، كما كانت الحال عليه في المدن الفينيقية الأخرى. وفيما بعد قادهم الفرس، ثمّ المقدونيون، والآن الرومان، إلى بناء دولة حديثة. ولكن في الأحوال كلّها كان الأراديون ومعهم الفينيقيون الآخرون يخضعون للملوك السوريين ويدخلون معهم في صداقات. وبعد ذلك، حينما وقع النزاع بين الشقيقين كاللينيكوس سلوقس، وأنطوخ هيراكس، أخذ الأراديون جانب كاللينيكوس وعقدوا معه اتفاقاً حصلوا منه بموجبه على حق إيواء المطرودين من مملكته وعدم تسليمهم إلاّ إذا أرادوا هم ذلك. بيد أنه لم يكن يسمح لهؤلاء بمغادرة الجزيرة إلاّ بإذن الملك. وقد منحهم هذا الاتفاق منافع كثيرة. فالمنفيون الباحثون عن ملجأ آمن لم يكونوا أشخاصاً عاديين، بل كانوا قبل نفيهم، من كبار رجال الدولة، ولذلك كانوا يخشون التداعيات الخطيرة. وإذ لاقى هؤلاء استقبالاً وديّاً من قبل الأراديين، عدّوهم محسنين إليهم ومنقذين، وكانوا دائماً يتذكّرون هذا لدى عودتهم إلى وطنهم. وبهذه الطريقة اكتسب الأراديون كثيراً من الأراضي في البرّ، ولا يزالون حتّى الآن يملكون الشطر الأكبر منه، حتّى بلغوا عموماً درجة الرخاء. وقد قرن الأراديون هذه الظروف الملائمة ببعد نظر وعلوّ همة في الأعمال البحرية. فعندما رأوا على سبيل المثال، أنّ جيرانهم الكيليكيين قد أخذوا يشكلون عصابات من القراصنة، لم يشاركوا قط في مثل هذه النشاطات.

15- بعد أورفوسيا ونهر إيليثيرا تأتي تريبوليس[14]، التي أخذت اسمها من وضعها الفعلي، وعلى وجه التحديد لأنها نشأت من ثلاث مدن: صور، وصيدون، وأراد. وتجاور تريبوليس ثيوبروسوبون[15]، حيث ينتهي جبل لبنان. ويقع بينهما مكان حصين يدعى ترييريست.

16- وهناك جبلان يرتفعان متوازيين تقريباً، هما جبل لبنان وأنتيلبنان*، اللذان

* أي سلسلة جبال لبنان الشرقية والغربية. ح. إ.

يشكلان ما يسمّى كيليسوريا. ويبدأ الجبلان معاً من فوق البحر بمسافة قليلة: يبدأ جبل لبنان من على مقربة من تريبوليس، غير بعيد عن ثيوبروسوبون، ويبدأ جبل أنتيلبنان من على مقربة من صيدون. وينتهي الجبلان معاً في مكان ما غير بعيد عن جبال العربية التي ترتفع فوق داماسكينا * وما يدعى تراخونا[16]، إذ ينتهيان إلى جبلين آخرين: هضاب رملية وهضاب خصبة. ويبقى بينهما سهل عميق عرضه 200 مرحلة على مقربة من البحر، وطوله من البحر إلى أجزاء البلاد الداخلية ما يقارب ضعف هذا الرقم. وتعبر السهل أنهار تروي المنطقة المعطاءة التي تنتج شتّى أنواع الغلال؛ وأكبر الأنهار هنا هو نهر الأردن. وثمّة في هذا السهل بحيرة حيث كما هي الحال في المستنقعات، تنمو أدغال القصب الفوّاح. وتدعى البحيرة جينيساريتيس. وينتج السهل البلسم أيضاً. ويعطي أحد الأنهار، وهو النهر الذي يدعى كريسورواس ويبدأ من مدينة الداماسكينيين ومنطقتهم، يعطي ماءه كلّه تقريباً للقنوات، لأنه يروي البلاد الشاسعة التي تغطيها طبقة سميكة من التربة. أمّا ليكسوس والأردن فهما نهران صالحان للملاحة صعوداً مع مجرييهما، وتبحر فيهما سفن الشحن التي يملك الأراديون أكثرها.

17- وفيما يتعلّق بالسهول، فإن أوّلها، وهو الذي ينبسط من البحر، يدعى ماكراس أو سهل ماكرا. وبحسب رواية بوسيدونيوس أنهم وجدوا هنا تنيناً ميتاً طوله بليفر وعرضه بليفر، وأنّ فارسين وقفا على جانبيه لم يستطع أيّ منهما أن يرى الآخر؛ كما كان بلعومه عظيماً إلى حدّ سمح لفارس أن يدخل فيه وهو على صهوة جواده، وكانت كلّ حرشفة من حراشفه أطول من الترس.

18- وبعد ماكرا يأتي سهل ماسيوس حيث هناك عدة أجزاء جبلية بينها خلكيس التي تعدّ بمثابة أكروبوليس ماسيوس. ويبدأ هذا السهل في لاوديكية لبنان. ويشغل الإيتوريون والعرب المناطق الجبلية كلها، وهؤلاء كلّهم قطّاع طرق ولصوص؛ أمّا سكّان السهول فهم على الضدّ، فلاحون. ويعتدي قطّاع الطرق على الفلاحين ويضطهدونهم، الأمر الذي يدفع هؤلاء إلى طلب العون من مختلف الجهات. وتعدّ التحصينات هي نقاط الاستناد التي يقيم اللصوص فيها، ومنها يشنّون غزواتهم. فسكّان لبنان مثلاً، يشغلون على قمة جبل حصن سينّا وحصن بوراما وسواهما من

* أي منطقة دمشق. ح. إ.

الحصون الأخرى، أمّا في الأسفل فيشغلون الكهفين الساحليين بوتريس وجيجارت، والحصن الذي بني على ثيوبروسوبون. وقد هدم بومبييوس هذه الحصون كلّها. ومن هنا كان قطّاع الطرق يشنّون غزواتهم على جبيل ومدينة بيريت التي تليها. وتقع هاتان المدينتان بين صيدون وثيوبروسوبون. وجبيل هي العاصمة الملكية للملك كينير، وهي مدينة مكرّسة لأدونيس. لقد حرّر بومبييوس المدينة من نظام التيرانية، واحتزّ رأس التيران. وتقع المدينة على مرتفع قريب من البحر.

19- ويأتي بعد جبيل نهر أدونيس، وجبل كليماكس وباليبيل. ثمّ يأتي نهر ليكوس ومدينة بيريت. وكان تريفون قد هدم هذه الأخيرة، إلاّ أن الرومان أعادوا الآن بناءها. وقد قيّض لمدينة بيريت أن تستقبل فيلقين نشرهما أغريبا هنا، وضمّ إلى أملاك المدينة شطراً كبيراً من منطقة ماسيوس وصولاً حتّى منابع العاصي. وتقع هذه المنابع قرب لبنان، وباراديس، والتحصينات المصرية التي تقع على مقربة من منطقة أفاميا. إنّ هذه هي معلوماتي عن المناطق الساحلية.

20- ويمتدّ إلى الأعلى من ماسيوس واد يدعى الوادي الملكي، ومنطقة دمشق الذائعة الصيت. ودمشق مدينة كبيرة، بل يمكن القول إنها المدينة الأكثر شهرة في هذا الجزء من العالم إبّان السيطرة الفارسية. ويعلو فوقها تراخونان[17] اثنان. ونحو المنطقة التي يسكنها العرب والإيتوريون بالتناوب، تعلو جبال وعرة عصية فيها كهوف مداخلها عميقة؛ فأحد هذه الكهوف يتّسع لـ 4000 شخص في حال وقوع هجوم معاد من تلك التي كان الدمشقيون يتعرضون لها من شتّى الجهات. وفي واقع الحال إنّ البرابرة كانوا يهاجمون تجار العربية السعيدة ويسلبونهم، الأمر الذي نادراً ما يحصل الآن، بعد أن قضي على عصابات قطّاع الطرق التي كان يتزعمها زينودور، إثر فرض الرومان النظام القانوني والأمن الذي أعاده الجنود الرومان المعسكرون في سوريا.

21- إن كلّ البلاد الواقعة فوق سلوقيا، والتي تمتدّ باتجاه مصر والعربية تقريباً تدعى كيليسوريا. ولكن بالمعنى الدقيق لا يحمل هذا الاسم سوى جزء منها وهو الجزء الذي يقتصر على لبنان وأنتيلبنان. وممّا تبقى من الجزء الآخر[18]، ثمّة شريط ساحلي ضيّق يمتدّ من أورفوسيا إلى بيلوسي، يدعى فينيقيا؛ أمّا الجزء الداخلي الذي يمتدّ فوق فينيقيا حتّى منطقة العرب، بين غزّة وأنتيلبنان، فيحمل اسم اليهودية.

22- وبما أنني كنت قد وصفت كيليسوريا بالذات، فإني أدلف الآن إلى فينيقيا، مع أني وصفت سابقاً جزءها من أورفوسيا حتّى بيريت. وبعد بيريت بـ 400

مرحلة تقريباً، تقع صيدون. ويجري بين هاتين المدينتين نهر تاميرا، كما تقع أدغال أسكليبوس وليونتوبوليس. وتلي صيدون مدينة صور، أكبر مدن الفينيقيين وأقدمها، التي كانت تنافس صيدون بالحجم، والشهرة، والتي تحدّث لنا عنها كثير من الأساطير. وعلى الرغم من أن الشعراء أشهروا صيدون أكثر (بل لم يأت هوميروس على ذكر صور قط)، إلاّ أنّ المستعمرات التي أرسلت إلى ليبيا وإيبيريا، بل حتّى تلك التي اتّجهت نحو الأعمدة، تتغنّى بصور أكثر. لقد كانت المدينتان شهيرتين وماجدتين، قديماً وفي أيامنا هذه. ولكن أيّ مدينة منهما ينبغي أن تعدّ متروبوليا الفينيقيين؟ لا يزال الأمر موضع خلاف. وتقع صيدون على مقربة من ميناء ملائمة من حيث طبيعة موقعها.

23- إنّ صور كلّها عبارة عن جزيرة؛ وكانت قد بنيت على غرار أراد تقريباً؛ ولكنّ المدينة تتّصل مع البرّ بممرّ ترابي مدّه الإسكندر عندما حاصرها. وفي المدينة ميناءان؛ إحداهما مغلقة، والأخرى، التي تدعي «المصرية»، مفتوحة. ويقال، إن المنازل هنا متعدّدة الطوابق، حتّى أنها أعلى من منازل روما. ولذلك عندما كانت تقع الهزّات الأرضية، بالكاد كانت المدينة تنجو من الدمار التام. ولسوء حظ صور أنّ الإسكندر استولى عليها بعد حصار طويل. ومع ذلك نجحت المدينة في تجاوز مثل هذه المحن واستعادت مجدها بفضل كفاءة أعمال الملاحة (وقد تفوّق الفينيقيون فيها على كلّ الشعوب الأخرى)، وكفاءة مصابغها التي كانت تنتج الصباغ الأرجواني. فالأرجوان الصوري يعدّ حقّاً الأرجوان الأجمل من كلّ ما عداه من الأرجوان. ويجري استخراج المحار القرمزي هنا على مقربة، وكلّ ما يلزم وضروري لأعمال الصباغة هنا بمتناول اليد. ولكنّ كثرة المصابغ تجعل العيش في المدينة غير مريح، بيد أن مهاراتهم العالية تجعلهم أثرياء جدّاً. ولم يكن الملوك وحدهم من اعترف باستقلال صور وأقرّ به، بل الرومان بدورهم أقرّوا المراسيم الصادرة بهذا الخصوص، ولم تتحمل المدينة من جراء ذلك سوى قليل من النفقات. وقد شاعت هنا شيوعاً واسعاً عبادة هرقل[19]. والبرهان على أهمية حملاتهم البحرية، هو وجود عدد كبير من مدنهم- مستعمراتهم الكبيرة. هؤلاء هم الصوريون.

24- وتصف الروايات الصوريين بأنهم حرفيون حاذقون في كثير من الفنون الجميلة، وهذا ما يتحدّث عنه بوضوح هوميروس[20] أيضاً. وكانوا يمارسون عدا عن هذا البحث العلمي في ميدان الفلك، وعلم الحساب، بدءاً من فنّ الإحصاء والإبحار

الليلي. فكلّ مجال من مجالات المعرفة هذه كان ضرورياً للتجار ولأصحاب السفن. إذ يقال مثلاً، إنّ المصريين هم الذين ابتكروا علم الهندسة، وإن هذا العلم نشأ عن قياس قطع الأرض الذي كان أمراً ضرورياً بعد أن تختلط الحدود إثر كلّ فيضان لنهر النيل. وعلى هذا النحو فإنّ هذا العلم، كما يظنّون، انتقل من المصريين إلى الإغريق، أمّا علم الفلك وعلم الحساب فقد انتقل إليهم من الفينيقيين. بيد أننا نستطيع في الوقت الراهن أن ننهل من هذه المدن ذخيرة من المعارف أكثر رحابة في كلّ ميدان من ميادين العلم. وإذا صدّقنا بوسيدونيوس، فإن الصيدوني موخ، الذي عاش قبل حرب طروادا، هو الذي وضع التعاليم القديمة عن الذرّة. ولكن، لنترك ما هو قديم الآن. ففي زمننا هذا ينتمي إلى صيدون الفلاسفة المعروفون: بويثوس الذي اشتغلت معه على فلسفة أرسطو، وديودوت، وشقيقه. ومن صور، الفيلسوف أنتيباتر، وقبل زمني بقليل، الفيلسوف أبوللونيوس الذي أصدر دليل فلاسفة مدرسة زينون مع لائحة بأسماء كتبهم.

- وتقع صور على مسافة لا تزيد على 200 مرحلة عن صيدون؛ وتقع بينهما مدينة صغيرة تدعى أورنيفوبوليس[21]. ويقع بعد ذلك نهر يصبّ في البحر غير بعيد عن صور، وبعد صور تقع باليتير[22] على بعد 30 مرحلة منها.

25- وتأتي بعد ذلك بطليموسيا التي تحمل اسم عكّا. وهذه المدينة هي نقطة استناد الفرس لعملياتهم ضدّ مصر. ويمتدّ بين عكّا وصور شاطئ رمليّ يستخدم رمله لصناعة الزجاج. ويقال إنهم لا يصهرون الرمل هنا، بل يحملونه إلى صيدا حيث يصهر فيها. ويزعم بعضهم أنه لدى الصيدونيين رمل صواني صالح لصهر الزجاج، مع أنه بحسب آخرين، يمكن صهر أيّ رمل كان في كلّ مكان. فقد سمعت من صانعي الزجاج في الإسكندرية، أنّ في مصر تربة صوانية لا يمكن من غيرها صناعة آنية ملّونة ثمينة، كما هي الحال في شتّى البلدان حيث يتطلّب هذا إعداد مختلف الخلطات. وفي روما أيضاً، كما يقال، ابتكروا مختلف الخلطات لتلوين المصنوعات، كما لتسهيل عملية صناعتها، مثلما هي الحال لدى صناعة الزجاج الشفاف، كالكريستال مثلاً، حيث يمكن اقتناء كأس زجاجية وكوب للشرب لقاء خالك واحد.

26- وتقول الروايات، إنّ ظاهرة فريدة وغريبة حدثت على هذا الشاطئ بين صور وبطليموسيا. ففي هذا المكان خاض البطالمة معركة مع القائد سربيدون وهزموا فيها[23]. وفي اللحظة نفسها انقضّت على الفارّين موجة بحرية تشبه المدّ البحري؛ فجرفت بعضهم معها إلى البحر، واستقرّت جثث الآخرين في أمكنة عميقة. وما إن

وقع الجزر بعد ذلك حتّى عرّى الشاطئ، فظهرت جثث الغرقى مبعثرة بين الأسماك النافقة. ويحدث مثل هذه الظاهرات أيضاً قرب جبل كاسيوس في مصر. فالأرض هناك، لدى تقلّبها الحاد المفاجئ تغيّر وضعها بالاتجاهين في لحظة (إلى أعلى مستوى وإلى أدنى مستوى). ولذلك فإن قسمها الذي يرتفع، يدفع البحر؛ أمّا قسمها الذي ينخفض فيستقبله. ولكنّ الاندفاع المعاكس يعيد المكان إلى وضعه السابق، بيد أنه يحدث أحياناً أن تختلط المستويات اختلاطاً كاملاً، ولكنّ هذا قد لا يحدث أيضاً[24]. وقد تكون مثل هذه الظاهرات مرتبطة ببعض القانونيات الدورية التي نجهلها، مثلما يزعمون بالنسبة لفيضانات النيل: مع أن هذه الأخيرة متنوّعة، إلاّ أنها خاضعة لحتمية ما نجهلها نحن.

27- ويقع بعد عكّا برج ستراتون[25] وفيه مرسى للسفن. وبين هذين الموقعين يقع جبل الكرمل ومدن صغيرة لا نعرف عنها شيئاً سوى أسمائها: سيكامينوبوليس، وبوكولوبوليس، ومدينة التمساح، وسواها. وتأتي بعد ذلك غابة كبيرة.

28- بعد ذلك تأتي جوبا، حيث خطّ الساحل الممتدّ قبل ذلك من مصر باتجاه الشرق ينعطف بوضوح نحو الشمال. ووفق روايات بعض مؤلّفي الأساطير، إنّ أندروميدا رميت هنا ليفترسها الوحش البحري. ويقع هذا المكان على مرتفع عال، ويقال، إن أورشليم، عاصمة اليهود، تظهر من هنا. ويستخدم اليهود هذا المكان ميناء عندما ينزلون إلى البحر؛ ولكنّ موانئ القراصنة تعدّ في الوقت نفسه أوكاراً للقراصنة وقطاع الطرق[26]. ولم يستول اليهود على الكرمل وحده من قبل، إنما استولوا على الغابة أيضاً؛ وكان هذا المكان مسكوناً بكثافة مكّنت سكّانه من تجنيد 40.000 مقاتل من مستوطنة جامنيا المجاورة وضواحيها. والمسافة من هنا إلى جبل كاسيوس الواقع قرب بيلوسي، أكثر بقليل من 1000 مرحلة، إضافة إلى 300 مرحلة أخرى إلى بيلوسي نفسها.

29- وفي المنطقة الفاصلة تقع هداريدس التي استولى اليهود عليها أيضاً، ثمّ تأتي بعدئذٍ آزوت وعسقلون. ومن جامنيا حتّى آزوت وعسقلون 200 مرحلة تقريباً. ومنطقة العسقلونيين صالحة جدّاً لزراعة البصل، أمّا المدينة نفسها فليست مدينة مهمّة. منها خرج الفيلسوف أنطوخ الذي عاش قبل زمننا بقليل. وخرج من هيداريدس فيلوديم الإيبيقوري، وملياغروس، ومينيبوس الشّاعر الهجائي، والبلاغيّ ثيودوروس الذي عاصرني.

30- وعلى مقربة من عسقلون يقع ميناء سكّان غزّة، ثمّ مدينة غزّة التي تقع على بعد 7 مراحل من الميناء في داخل البلاد. وفي زمن ما كانت هذه المدينة مدينة شهيرة، لكنّها هجرت بعد أن دمّرها الإسكندر. ويقولون إن الطريق البرية من هنا إلى إيلا * 1260 مرحلة. وإيلا هذه مدينة تقع في تجويف الخليج العربي. ويتألّف هذا التجويف من قسمين. أحدهما يمتدّ إلى المنطقة الواقعة عند العربية وغزّة (يدعونه إيلانيتا على اسم المدينة الواقعة فيه)، ويمتدّ القسم الآخر حتّى المنطقة القريبة من مصر عند هيرونبوليس؛ والطريق البرية إليه من بيلوسي أقصر. ويقطعون هذه المسافات على ظهور الإبل عبر الصحراء والرمال؛ ويصادفهم في الطريق كثير من الزواحف.

31- وتأتي بعد غزّة رفح، حيث دارت رحى معركة بين بطليموس الرابع وأنطوخ الكبير. وبعدها تأتي رينوكولورا[27]، التي حملت هذا الاسم لأنّ سكّانها القدماء كانت أنوفهم مقطوعة. والذي حصل فعلاً أنّ أحد ملوك إثيوبيا شنّ حملة على مصر، وبدلاً من أن يقتل المجرمين، قطع لهم أنوفهم وأسكنهم في هذا المكان؛ فقد اعتقد الملك أن الخجل الذي سيشعر به هؤلاء جراء هذا التشويه، سيدفعهم إلى الامتناع عن ارتكاب المعاصي.

32- وهذه المنطقة كلّها، ابتداء من غزة، منطقة رملية قاحلة؛ وتتميّز أكثر بمثل هذه الخاصيات أيضاً، البلاد التي تقع فوقها مباشرة. ففي هذه البلاد بحيرة تدعى سربونيدس، تقع على موازرة البحر تقريباً، وهي تترك في الفاصل معبراً صغيراً يصل حتّى ما يدعى الإيكريغما[28]. ويبلغ طول سربونيدس ما يقارب 100 مرحلة، وأكبر نقطة عرض لها 50 مرحلة. لكنّ الإيكريغما مليء بالتراب الآن. وبعد ذلك يأتي مكان آخر من هذا النوع نفسه، يصل حتّى كاسيوس، ومن هناك إلى بيلوسي.

33- وكاسيوس هضبة رملية لا ماء فيها، تشكّل رأساً بحرية. هنا دفن جثمان بومبييوس الأكبر، وهنا يقوم معبد لزيوس كاسيوس. فغير بعيد عن هذا المكان قتل المصريون بومبييوس الأكبر غدراً. ثمّ تمتدّ بعد ذلك طريق إلى بيلوسي؛ وتقع عليها هيرّا، والحصن الذي يدعى خابريا، وحفر عميقة بجانب بيلوسي أحدثتها فيضانات النيل، لأنّ هذه المنطقة مجوّفة ومستنقعية بطبيعتها. على هذا النحو هي فينيقيا. وبحسب أرتيميدور أنّ المسافة من أورفوسيا إلى بيلوسي 3650 مرحلة، بما فيها

* إيلات المعاصرة. -ح. إ.

تجويفـات الخلجـان؛ وأنّ المسـافة مـن ميلينـا أو ميلانـيس الـتي في كيليكيـا قـرب كيليندريدس، حتّى حدود كيليكيا وسوريا، هـي 1900 مرحلة؛ ومن هنا حتّى نهر العاصي 520 مرحلة، وحتى أورفوسيا 1130 مرحلة.

34- أمّا فيما يخصّ اليهودية، فعند حدودها الغربية نحو كاسيوس تقع منطقة اليهود وبحيرة. والإيدوميون هم النبط الذين طردوا من هناك[29] في أعقاب انتفاضة؛ فالتحقوا باليهود وأخذوا عاداتهم. وتشغل بحيرة سربونيدس والبلاد المجاورة لها حتّى أورشليم، الشطر الأكبر من المنطقة الساحلية، فالمدينة لا تبعد عن البحر كثيراً. وأنا كنت قد قلت[30] إن المدينة تُرى من ميناء جوبا. وتقع هذه المنطقة نحو الشمال. وكما هي الحال في هذه البلاد على وجه العموم، كذلك في كلّ مكان على حدة، فإنّ السكّان خليط من القبائل المصرية، والعربية، والفينيقية. فعلى هذا النحو هم سكّان الجليل، وهيريكونت، وفيلاديلفيا، وساماريا (التي دعاها هيرودوس [الأكبر] سيباستا). ومع أنّ السكّان هنا على هذا النحو من التنوّع، إلاّ أنّ الغالب من الآراء [التي تستحق الاهتمام] عن معبد أورشليم يصف أسلاف من يدعون الآن يهوداً بأنهم مصريون.

35- فموسى[31] هو واحد من الكهنة المصريين، الذي كان يملك شطراً مما يسمّى مصر السفلى. ولمّا لم يكن هذا راضياً عن الأوضاع التي كانت سائدة هناك انتقل إلى اليهودية مع جمع كثير من عابدي معبود واحد. وقد رسّخ موسى وعلّم فعلاً، أنه لدى المصريين والليبيين تصوّر خاطئ عن الإله لأنهم يمثّلونه في صور وحوش وحيوانات منزلية[32]؛ كما يخطئ الإغريق أيضاً إذ يمثّلون الآلهة في صورة بشرية. فبحسب رأيه، أنّ الإله كائن واحد أوحد يحتوينا كلّنا، ويحتوي الأرض والبحر، وكلّ ما ندعوه نحن السماء أو الكون، أو طبيعة كلّ ما هو موجود. وهل من عاقل يجرؤ على صنع صورة لمثل هذا الإله تشبه مادّة من المواد التي تحيط بنا؟ إن الأمر على الضدّ من هذا، إذ ينبغي العزوف عن وضع أيّ رسم للإله، بل ينبغي تكريس أرض مقدّسة له وبناء معبد عليها يليق به، وعبادته من غير أي رسم أو تمثيل. وينبغي على من يرى في نومه رؤى أن ينام في المعبد، ليس من أجل أنفسهم فقط، إنما من أجل الآخرين أيضاً. ومن يعش عيشة زهد، وحياة صالحة، يمكنه دائماً أن ينتظر من الإله خيراً ما، هبة، عطاء، أو آية، لكنّ الآخرين يجب ألاّ ينتظروا شيئاً من هذا.

36- وبعد أن عرض موسى هذا النوع من التعاليم، أقنع أعداداً غير قليلة من أصحاب التفكير السليم، وقادهم ليستقرّ معهم في المكان الذي تقوم عليه مستوطنة

أورشليم الآن. ولم يجد موسى صعوبة تذكر في الاستيلاء على هذه الأرض، لأنها لم تكن أرضاً تستحقّ الصراع عليها، أو يمكن لأحد أن يخوض قتالاً جدياً من أجلها. وواقع الأمر إنّ هذه البلاد بلاد صخرية، والحقيقة أن مياهها غزيرة، إلاّ أن المناطق المحيطة فقيرة ولا ماء فيها، أمّا القسم الداخلي من البلاد، وعلى امتداد 60 مرحلة، فأرضه مغطاة بطبقة صخرية تحت سطح التربة. وفي الوقت نفسه لم يدفع موسى بالسلاح إلى الواجهة، بل دفع بالمقدّس والإله، الذي كان يرغب في أن يجد له مكاناً يقيم فيه طقوس عبادته[33]، فوعد الشعب بأن يقيم عبادة وطقوساً مقدّسة من النوع الذي لا يرتّب على من يعتنقها نفقات ثقيلة، أو تزمّتاً دينياً، أو ما شابه من الشعائر السخيفة. وبمثل هذه الوسائل حظي موسى باحترام واسع وأقام سلطة فريدة من نوعها، لأنّ الأقوام المحيطة كلّها التحقت به من أجل تلك التعاليم والوعود.

37- لقد أقام خلفاء موسى على وفائهم لتعاليمه لبعض الوقت، بعد أن رأوا فيها حياة صالحة طاهرة حقيقية. لكنّ وظيفة الكهنوت استقرّت بعد ذلك في أيدي شخصيات متزمتة، ثمّ مستبدّة. وقد أنتج هذا التزمت تحريم عدد من أنواع الطعام التي لا تزال محرّمة حتّى يومنا هذا؛ كما فرض أيضاً طقس الختان، ختان الذكور والإناث، إضافة إلى الطقوس الأخرى التي من هذا النوع، والتي كرّست شرعياً. وقد نشأت عن التيرانية عصابات من قطاع الطرق[34]. ونهب المتمرّدون البلاد، بلادهم والبلاد المجاورة؛ أمّا الآخرون الذين كان يعملون بالتنسيق مع الحكّام، فقد كانوا ينهبون أرزاق الآخرين، وأخضعوا لسلطانهم شطراً كبيراً من سوريا وفينيقيا. ومع ذلك حافظوا على درجة من الاحترام لمدينتهم الرئيسة؛ فلم ينفروا منها بصفتها مقرّاً للتيران، بل بجّلوها واحترموها بصفتها مدينة مقدّسة.

38- وعلى هذا النحو كان واقع الأشياء والديدن المشترك بين الإغريق والبرابرة. فبعد أن اتحد هؤلاء في مشاعات مدنية، عاشوا وفق قانون عام مشترك. فبطريقة أخرى فعلاً لم يكن بمقدور الكتلة الشعبية في أيّ بلد أن تفعل الأمر عينه بتوافق أفرادها بعضهم مع بعض (وفي هذا تحديداً يكمن الاتحاد المدني) أو أن تعيش حياة مشتركة أصلاً. لكنّ لهذا القانون طبيعة مزدوجة، لأنه صادر إمّا عن الآلهة أو عن البشر. وفي أقلّ تقدير كان القدماء يرون في القانون الإلهي القانون الأسمى والأقدس، ولذلك كانوا يكنّون كلّ الاحترام لمن كان يسأل الموْحى؛ لقد جاء إلى دودونا لكي

يسمع إرادة زيوس من شجرة البلوط العالية المورقة،

(*الأوذيسا*، XIV، 328)

فتوجّه إلى زيوس بصفته مرشداً؛ أمّا إلى دلفي، فقد جاء

باحثاً عن ابنه المهجور،

أو الذي لم يعد له على الأرض وجود

(*يوريبيدس*، 34)

ومينوس الذي من الكريتيين

... ملَكَ، وكان

كلّ تاسع عام يحادث كرونيون الحكيم،

(*الأوذيسا* X، 19)

والذي يقول أفلاطون إنه كان يصعد كلّ تسعة أعوام إلى كهف زيوس فيتلقى منه الأوامر ثمّ ينقلها إلى الناس. والشيء نفسه كان يفعله ليكورغوس[35]، الذي كان يحاكي ما كان يفعله مينوس؛ فليكورغوس غالباً ما كان يسافر من بلاده لكي يسأل البيثيا عن التعليمات والأوامر التي ينبغي أن ينقلها إلى اللاكيديمونيين.

39- ولكن مهما كان نصيب هذه الأقوال من الحقيقة، إلاّ أنهم آمنوا بها واتخذوها كقانون. ولذلك كان المتنبّؤون يحظون بكل ذلك الاحترام، حتّى أنهم عدّوهم أهلاً للسلطة الملكية، لأنهم يظهرون لنا إرادة الآلهة في الحياة وبعد الموت. فتيريسيوس مثلاً:

حفظت له بيرسيفوني عقله وهو ميت؛ في هاديس

كان وحده بكامل وعيه؛ وكانت الأشباح الأخرى تهيم عامهة.

(*الأوذيسا* X، 494)

وعلى هذا النحو كان أمفيارايوس، وتروفونيوس، وأورفيوس، وموسيوس وإله الجيتيين الذي كان يتمثّل عندهم قديماً في فيثاغورسي ما يدعى زامولسكي[36]، أمّا في زمننا هذا، فهو ديكينوس[37] المتنبّئ عند بيريبيست؛ وعند البوسبوريين: أهايكار، وعند الهنود: الصوفيون العراة؛ وعند الآشوريين: الكلدان؛ وعند الفرس: الماغي والنيكرومانت، وكذلك الليكانومانت والهيدرومانت؛ وعند الرومان: التيرينيون

قارئوا الطالع[38]. وعلى غرار هؤلاء كان موسى وخلفاؤه الذين حرّفوا بعد ذلك مبدأ لم يكن سيّئاً.

40- وهكذا، عندما أخذ التيران يحكمون اليهود علانية ومن غير مواربة، كان الإسكندر أوّل من أعلن نفسه ملكاً بدلاً من الكاهن. وكان للإسكندر ولدان، هما هيركان وأريستوبول. وفي أثناء النزاع بينهما على السلطة، جاء بومبييوس وأطاح بهما معاً، وهدم القلعة واستولى على أورشليم عنوة. وكانت هذه المدينة عبارة عن قلعة مبنية على صخرة ومحصّنة تحصيناً جيّداً؛ وكان في داخل القلعة ماء غزير، لكنّ المنطقة الممتدّة وراء أسوار القلعة كانت خالية منه. لقد كان سور القلعة محاطاً بخندق محفور في الصخر عمقه 60 قدماً وعرضه 250 قدماً. ومن الصخر المقتلع [من الصخرة]، بنوا سور المعبد وأبراجه. ويروى أنّ بومبييوس استولى على المدينة مستغلاً يوم الصوم[39]، وهو اليوم الذي يمتنع اليهود فيه عن تأدية أيّ عمل كان؛ فأمر بطمر الخندق ورمي سلالم الهجوم من الأعلى. ثمّ أمر بهدم الأسوار كلّها وتدمير ما يمكن تدميره من أوكار اللصوص وخزائن التيران. وكان اثنان من مثل هذه الأوكار عبارة عن قلعتين واقعتين على الممرات الجبلية التي تؤدّي إلى هيريكونت،- فريسك وطور؛ وما تبقّى - الإسكندرية، وهيركاني، ومخيروس وليسيادا، وتلك التي تقع قرب فيلاديلفيا، وكذلك سكيتوبوليس قرب الجليل.

41- وهيريكونت هو سهل يحيط به ما يشبه المنطقة الجبلية التي تلامسه في صورة تشبه المشهد المسرحي. ويقع هنا دغل من شجر النخيل تنمو بين شجره هذا أنواع أخرى من أشجار البساتين والأشجار المثمرة، لكنّ الغلبة فيه لشجر النخيل. ويبلغ طول هذا الدغل 100 مرحلة؛ والدغل كلّه مرويّ بمياه الينابيع والجداول، ومليء بالمساكن. وهنا يقع القصر الملكي[40] أيضاً، وحديقة فيها نجمات من شجيرات البلسم. والبلسم نبات عطري على شكل شجيرات تشبه الكيتيس[41] والتيرميث[42]. فيشرطون لحاءها ويجمعون عصيرها الذي كالحليب المكثف في أواني؛ ويتصلّب البلسم عندما تكون كميته قليلة. ولهذا العصير فاعليه مذهلة في التخلّص من الصداع، والمياه الزرقاء عندما تكون في مراحلها الأولى، وكذلك حسر البصر. ومهما كان الأمر فإن عصير البلسم يحظى بتقدير عال جدّاً، خاصة أنه لا يستخرج إلاّ هنا. وعلى النحو نفسه دغل النخيل، حيث لا تنمو إلاّ هنا شجرة النخيل التي تعطي ثمراً على شكل عين الجمل (ما

عدا الدغل البابلي والأدغال الواقعة خارج حدود بابل نحو الشرق). ولذلك فإن هذه النباتات تعطي مورداً كبيراً. وتستخدم شجرة البلسم كتوابل عطرية.

42- وتعدّ بحيرة سربونيدس بحيرة كبيرة[43]. فبعضهم يزعم فعلاً أن امتداد محيطها يبلغ 1000 مرحلة. لكنّها تمتدّ طولاً على شاطئ لا يزيد كثيراً عن 200 مرحلة؛ والبحيرة عميقة قرب شواطئها؛ ومياهها ثقيلة إلى درجة لا تتطلب من المرء أن يحسن العوم: ما إن يدخل الشخص فيها ويغمره ماؤها حتّى السرّة حتّى يرتفع رويداً رويداً. والبحيرة مليئة بالإسفلت. ومن وقت لآخر ينفجر الإسفلت على سطح الماء صاعداً من الأعماق على شكل فقاعات، حيث يبدو الأمر كأن الماء يغلي. وإذ ينتفخ سطح الماء يتخذ شكل التلّ. وتصعد مع الإسفلت إلى السطح كمية كبيرة من السخام الذي يشبه الدخان، لكنّ العين لا تراه. ومن هذا السخّام يصدأ النحاس، والفضّة، وكلّ المواد التي تبرق، بما فيها الذهب. وما إن يغطي هذا الصدأ أواني سكّان الضواحي، حتّى يعرف هؤلاء إن قذف الإسفلت قد بدأ؛ فيستعدّون بعد ذلك لاستخراجه باستخدام أطواف مصنوعة من القصب. والإسفلت هنا عبارة عن كتلة ترابية تتحوّل بتأثير الحرارة إلى كتلة سائلة، ثمّ تُقذف إلى الخارج وتنتشر على السطح. وبعد ذلك تتحوّل من جديد بتأثير برودة الماء (لأن مياه البحيرة باردة) إلى كتلة صلبة ينبغي تقطيعها وتفتيتها. ويطفو الإسفلت على السطح بفضل الخاصية الطبيعية لمياه البحيرة التي أشرت قبل قليل إلى أن وجودها يغني عن معرفة العوم. فلا يمكن أن يغرق هنا في هذه المياه أحد، لأنّ الماء يصعد به إلى السطح[44]. ويعوم السكّان هنا على أطواف، فيقطّعون الإسفلت ويحملون منه قدر ما يستطيع كلّ منهم أن يحمل.

43- هذه هي خاصية هذه الظاهرة. ولكنّ بوسيدونيوس يخبر أنّ السكّان المحلّيين، لأنّهم سحرة، يعتمدون الرقى ويستخدمون البول وما شابه من السوائل الكريهة الرائحة التي يسكبونها على الإسفلت، ثمّ يعصرونه ويتركونه ليتصلّب، ويقطعونه إلى قطع. وربّما تكون في البول نفسه خاصية ما من هذا النوع، فالذين يعانون من حصى في المثانة، يتشكّل عندهم فيها كريسوكول[45]، كما يظهر أيضاً في بول الأطفال. وحدوث هذه الظاهرة في وسط البحيرة، أمر مفهوم، لأنّ مصدر النار والإسفلت يقع في وسطها. لكنّ خروج الحمم ليس منتظماً، لأنّ حركة النار، مثلها مثل كثير من الأشياء الأخرى، ومنها الهواء لا تخضع لنظام معروف لنا. ويمكننا أن نرصد وجود ظاهرات مماثلة لدى أبوللونيوس في الإيبيروتيدس[46].

44- ويسوقونَ كثيراً من البراهين التي تؤكّد أن هذه الأرض مليئة بالنار. فعند مواسادا يعرضون صخوراً مشوية ساقطة، وفي كثير من الأماكن أخاديد وتربة تشبه الرماد: تسيل من الصخور الملساء خيوط من قطر القطران تنشر رائحتها الكريهة على مسافات بعيدة؛ وترى هنا وهناك منازل مهدّمة. ولذلك ينبغي أن نصدّق الروايات الشائعة بين السكّان المحلّيين عن وجود 13 مدينة هنا كانت مسكونة، وإنّ المدينة الرئيسة بينها كانت مدينة سودوما التي كان امتداد محيطها 60 مرحلة. وبسبب الهزّات الأرضية، والحمم النارية، ومياه البحيرة الكبريتية والإسفلتية الحارّة، خرجت مياه البحيرة على حين غرّة من ضفافها، وأخذت النار من الصخرة كلّ مأخذ؛ أمّا المدن فقد ابتلعت الأرض بعضها، وفرّ من بعضها الآخر من تسنّى له الفرار من السكّان. وبحسب قول إيراتوسفين الذي يزعم العكس، إنّ هذه الأرض لم تكن بحيرة في أي يوم من الأيام، وإن الشطر الأعظم منها تعرّى، وصعد فوق الماء نتيجة الثورات البركانية، كما كان قد حصل في تساليا[47] أيضاً.

45- وفي هيداريدس أيضاً مياه بحيرة مؤذية؛ فإذا ما شربت منها المواشي، تساقط وبرها وأظلافها وقرونها. وفي بحيرة ما يسمّى تارحيا أسماك من أفضل أنواع السمك الصالح للتمليح؛ وتنمو في هذا المكان أشجار مثمرة تشبه أشجار التفاح. ويستخدم المصريون الإسفلت لتحنيط الموتى.

46- لقد فصل بومبييوس عن اليهودية عدداً من المناطق كان اليهود قد استولوا عليها عنوة، وأعطاها لهركان[48] الكهنوت الأعلى. وفيما بعد نجح هيرودوس، أحد أحفاده، وهو من منشأ محلّي، بالتسلل إلى منصب الكاهن الأكبر. وقد كان هيرودوس متميّزاً عن أسلافه تميّز كبيراً، خاصة بفضل علاقاته مع الرومان، وحكمته في إدارة شؤون الدولة، ما جعل الرومان يعلنونه ملكاً، وكان أنطونيو أوّل من منحه هذه السلطة، ثمّ منحه إياها بعد ذلك قيصر أغسطس. لقد قتل هيرودوس بعضاً من أبنائه بدعوى أنهم كانوا يتآمرون عليه، وعيّن بعضهم الآخر ورثة له بعد موته، ثمّ منحهم أجزاء من مملكته. وقد كرّم قيصر أبناء هيرودوس، وأخته سالومي وابنتها برينيكي. لكنّ أبناءه كانوا تاعسيّ الحظ. فقد وجّهت إليهم الاتهامات، فقضى بعضهم[49] حياته كلّها منفياً لاجئاً عند الغلاطيين - الألّلوبروغيين، بينما أظهر بعضهم الآخر[50] قدراً فريداً من المحاباة ونال (لكن بصعوبة) حق العودة في عهد التيترارخيا.

الفصل الثالث

1- تمتـدّ العربيـة كلّهـا ، مـا عـدا منطقـة سـكّان الخيـام في منطقـة مـا بـين النهـرين، فـوق اليهوديـة وكيليسـوريا وصـولاً إلى بابـل ومنطقـة الفـرات النهريـة نحـو الجنوب. وأنا كنت قد تحدّثت[1] عمّا بين النهرين والقبائل التي تعيش فيها. أمّا المنـاطق الواقعـة علـى الجانـب الآخـر مـن الفـرات، فـإن البـابليين يشـغلون الأراضـي الواقعـة عنـد مصبّاته ومعهم فيها قبيلة الكلدانيين الذين كنت قد أتيت على ذكـرهم أيضـاً[2]؛ أمّا الأراضي التي تمتدّ مباشرة بعد ما بين النهرين حتّى كيليسوريا ، خاصة الشطر القريب مـن النهـر ، وكـذلك مـا بـين النهـرين نفسـها ، فـإن العـرب سـكّان الخيـام هـم الـذين يملكونها ، ويتوزّع هؤلاء على إمارات صغيرة مستقلّة؛ ويعيش العـرب في أمـاكن قاحلـة عقيمة بسبب فقرها إلى الماء؛ ولذلك لا يمارس هؤلاء العمل الزراعي البتّة ، أو يمارسـون قليلاً جدّاً منه ، لكنّهم يربّون مختلف أنواع الماشية ، خاصة الإبل. وتمتدّ إلى الأعلـى مـن العـرب سـكّان الخيـام ، صـحراء شاسـعة؛ ويشـغل سـكّان مـا يسمّـى العربيـة السـعيدة ، المنـاطق الواقعـة أبعـد إلى الجنـوب مـن العـرب. وتشـكّل الجهـة الشـمالية مـن العربيـة السـعيدة الصـحراء الـتي أتينـا علـى ذكرهـا هنـا ، ويشـكّل الخلـيج الفارسـي جهتهـا الشـرقية ، والخلـيج العربـي جهتهـا الغربيـة ، والبحـر الكـبير (خـارج هـذين الخلـيجين) جهتها الجنوبية ، ويدعى هذا البحر كلّه ، البحر الأحمر.

2- ويـدعى الخلـيج الفارسـي بـدوره ، البحـر الفارسـي. ويصـفه إيراتوسـفين علـى النحو الآتي. يقول: مدخل الخليج ضيّق إلى درجة تمكننـا مـن رؤيـة رأس مكّـة البحريـة في العربية من هرمز رأس كارمانيا البحرية. والسـاحل الـذي علـى يمـين مـدخل الخلـيج مسـتدير الشـكل يميـل في الأوّل عـن كارمانيـا قلـيلاً نحـو الشـرق ، ثـمّ نحـو الشـمال ، وبعـدها نحـو الغـرب وصـولاً إلى تيريـدون ومصـبّات الفـرات. ويشـمل السـاحل شـاطئ الكـارمـانيين ، وجزئيـاً شـاطئ الفـرس ، والسوسـيين ، والبـابليين علـى امتـداد يقـارب 10.000 مرحلة. وأنا كنت قد تحدّثت عن هـذه الأقـوام[3]. ومـن هنـا حتّـى ثغـور السـاحل 10.000 مرحلـة أخـرى ، علـى حـدّ قـول أندروسـفين الفاسوسـي كمـا ينقـل عنـه إيراتوسفين ، فاندروسفين رافق نيارخس في إبحاره ، كما أبحر لوحده على طول سـاحل العربية. ويتّضح من هنـا أن هـذا البحـر لا يقـل حجمـاً عـن البحـر الإيفيكيسيني. وينقـل إيراتوسفين عن أندروسفين الذي أبحر مع الأسطول حول الخليج قولـه ، إنـه إذا أبحـرت

على طول الساحل والبرّ على يمينك، فإنك ستلقى بعد تيريدون مباشرة جزيرة إيكار الواقعة أمام الشاطئ، وفيها معبد مكرّس لأبوللون، وموْحى تافروبولا[4].

3- وبعد أن تبحر على طول شواطئ العربية 2400 مرحلة، تلقاك في عمق الخليج مدينة الحيرة، وهي مستوطنة الكلدانيين المنفيين من بابل والذين يعيشون هنا في مكان تربته مالحة، وفي منازل مبنية من الحجر الملحي. ولكن بما أن صفائح الملح تتساقط دائماً بسبب شدّة حرارة الشمس، فقد لجأ السكّان إلى سقي الجدران بالماء كي يحافظوا عليها متينة محكمة. وتقع المدينة على مسافة 200 مرحلة عن البحر. ويعمل الحيريون بالتجارة، فينقلون برّاً بضائع العربية وعطورها. ولكنّ أريستوبول يزعم العكس إذ يقول، إن الحيريين ينقلون الجزء الأعظم من بضائعهم إلى بابل على أطواف؛ فهم يبحرون من هنا مع بضائعهم صعوداً في نهر الفرات حتّى فابساك، ثمّ ينقلونها من هناك برّاً إلى شتّى أرجاء البلاد.

4- وإذا واصلنا الإبحار فسوف تلقانا جزر أخرى: صور، وأراد حيث تقع هناك معابد تشبه المعابد الفينيقية. وفي أقلّ تقدير، إن سكّان الجزيرتين يزعمون أن الجزر والمدن الفينيقية التي تدعى بالأسماء عينها، مستعمراتهم. وتقع هاتان الجزيرتان على بعد عشرة أيام من تيريدون، ويوم واحد من الرأس البحرية الواقعة قرب ثغر الخليج الذي عند مكّة.

5- ويروي نيارخس وأورفاغور إنه على بعد 2000 مرحلة إلى الجنوب من كارمانيا، في عرض البحر تقع جزيرة أوجيريس التي يعرضون فيها قبر إريثرا، وهي عبارة عن تلّ كبير مزروع بالنخيل البرّي. وقد كان إريثرا ملك على هذه البلاد، ومن اسمه أخذ البحر الإريثري اسمه[5]. ويقول نيارخس، إن ميثروباست بن أريستوس والي فريجيا، هو من أخبره بهذا؛ وكان ميثروباست الذي نفاه داريوس، قد عاش في هذه الجزيرة وانضمّ إلى المقدونيين عندما رسا هؤلاء في الخليج الفارسي باحثاً عن فرصة تمكّنه من العودة إلى وطنه.

6- وعلى طول ساحل البحر الأحمر تنمو في عمق البحر أشجار تشبه الغار وشجر الزيتون؛ وفي أثناء الجزر تظهر هذه الأشجار تماماً من الماء؛ لكنّ المدّ يغمرها تماماً في بعض الأحيان[6]، أمّا الأراضي الواقعة فوق سطح البحر، فهي خالية من أيّ شجر؛ وعلى هذا النحو تغدو هذه الظاهرة ظاهرة غريبة. لقد كانت هذه هي أخبار إيراتوسفين عن البحر الفارسي الذي يشكل كما قلت، الجانب الشرقي من العربية السعيدة.

7- ويقـول نيـارخس إنهـم التقـوا ميثروباسـت ومـازن. وكـان هـذا المـازن حاكمـاً علـى جزيـرة مـا في الخليـج الفارسـي. وكانـت هـذه الجزيـرة تـدعى وراكتـا. وعلـى هـذه الجزيـرة وجـد ميثروباسـت ملجـأ واسـتقبالاً وديّـاً بعـد فـراره مـن أوجيريس. كمـا اتّفـق ميثروباسـت مـع مازن علـى أن يزكيـه هـذا الأخيـر لـدى المقـدونيين ليعمـل في أسـطولهم، فقد غدا مازن مرشداً لهم في إبحارهم. ويروي نيارخس أيضاً، إنّ في بدايـة الإبحـار علـى طـول شـواطئ الخلـيج الفارسـي جزيـرة فيهـا كـمّ كـبير مـن اللؤلـؤ الـثمين، وفي الجـزر الأخـرى حجارة ثمينة شفافة لامعة. وينمـو في الجـزر الواقعـة أمـام مصبّات الفـرات شـجر يفـوح منـه عطـر البخـور؛ وعنـدما تكسـر جـذور هـذا الشـجر يسـيل منهـا عصـير. ويشـير نيـارخس كـذلك إلى كـبر حجـم السـرطانات والقنافـذ البحريـة هنـا، وهـي علـى وجـه العمـوم ظاهرة عامّة في أنحـاء البحـر الخـارجي كلّهـا. فالقنافـذ البحريـة هنـاك علـى حـدّ قوله، أكبر من الكافسوس(7)، والسرطانات وزن واحـدها كـوتيلان. كمـا رأى حوتـاً مرمياً على الشاطئ طوله 50 ذراعاً.

الفصل الرابع

1- تبـدأ العربيـة مـن جهـة بابـل مـن ميكينـا[1]. وعلـى أحـد جوانـب ميكينـا تقـع الصـحراء العربيـة، وتقـع علـى جانبهـا الآخـر المسـتنقعات الـتي تقـع قبالـة [منطقـة] الكلـدانيين، وهـي المسـتنقعات الـتي تشـكلها فيضـانات ميـاه الفـرات؛ ويقـع البحـر الفارسـي علـى جانبهـا الثالـث. وهـواء هـذه الـبلاد فاسـد وغـير صـحّي، ويغطّيهـا ضـباب دائم، وتهطل فيهـا أمطـار غزيـرة، لكـنّ القـيظ يلفحهـا في الوقـت نفسـه، بيـد أنهـا مـع ذلك تنتج غلالاً رائعة. فـداليات العنـب تنمـو هنـاك في المسـتنقعات إذا فرشـت في أقفـاص مجدولـة مـن القصـب كميـة كافيـة مـن الـتراب. ولـذلك لـيس نـادراً أن يسـحب المـاء الدالية، فيعمدون عندئذٍ إلى تحميلها على أوتاد لتعود ثانية إلى مكانها.

2- ولكـن فلنعـد إلى المعطيات الأخرى التي أوردها إيراتوسفين عـن العربيـة. فهـو يقول عن شطرها الشمالي، أو الصـحراوي (الممتدّ بين العربية السـعيدة، وكيليسـوريا، واليهودية وصولاً إلى تجويف الخليج العربي)، إنّ المسافة من هيرونبوليس، التي تشـكل منخفض الخلـيج العربـي عنـد النيـل باتجـاه بيترا الـتي في أرض النـبط، حتّـى بابـل 5600

[1] ميسان المعاصرة. - ح. إ.

مرحلة؛ وتمتدّ هذه الطريق باتجاه الشروق الصيفي للشمس(1) عبر أراضي القبائل العربية المجاورة، خاصة النبط، والحولوتيين، والأغريين. وإلى الأعلى من هذه الأراضي تقع العربية السعيدة التي تمتدّ على 12000 مرحلة جنوباً حتّى المحيط الأطلسي. وأوّل من سكن هذه البلاد بعد السوريين واليهود، هم الفلاّحون(2). وتمتدّ بعد هؤلاء أرض رملية قاحلة نادراً ما ينمو فيها النخيل، والأشواك(3)، وتستخرج فيها المياه من الآبار، كما هي الحال في هدروسيا. ويقطن هذه الأرض العرب ساكنو الخيام ورعاة الإبل. أمّا أقصى المناطق الجنوبية الواقعة قبالة إثيوبيا، فترويها مياه الأمطار الصيفية؛ ويبذرون البذار هنا كما في الهند، مرّتين في العام، وتغور أنهارهم في السهول والبحيرات. وعلى وجه العموم، تتميّز هذه البلاد بالخصوبة، وهي غنية بالمناحل على وجه الخصوص؛ وفيها كثير من المواشي، ما عدا الأفراس والبغال والخنازير، وأعداد كبيرة من الطيور، ما عدا الأوزّ والدجاج. وتسكن الطرف الأقصى من هذه البلاد أكبر أربع قبائل: المينيون[1] في القسم الواقع على البحر الأحمر، وأكبر مدنهم مدينة قرن أو قرنان؛ ثمّ يجاورهم السبئيون وعاصمتهم ماريبا[2]؛ والقبيلة الثالثة هي قبيلة القتبانيين التي تمتدّ منطقتهم حتّى المضيق والمعبر الذي يمرّ عبر الخليج العربي؛ وتدعى عاصمة مملكتهم تمنع. وأخيراً في أقصى الشرق يقطن الحضرموتيون؛ ومدينتهم تدعى ساباتا[3].

3- ويدير شؤون هذه المدن كلّها حكم فردي، لكنّها تزدهر فهي تزهو بمعابد وقصور ملكية فخمة. ومنازلها السكنية تشبه المنازل السكنية المصرية من حيث طريقة ضمّ العوارض. وتضمّ كلّ دائرة من هذه الدوائر الأربع أراضي مساحتها أكبر من مساحة الدلتا المصرية. ولا يرث العرش عندهم الابن عن أبيه، بل يرثه أوّل مولود في أيّ عائلة أرستقراطية يولد بعد انتخاب الملك. ولذلك ينظمون بعد انتخاب الملك الجديد مباشرة سجلاً بأسماء النسوة الحوامل في العائلات الأرستقراطية، ويضعون عليهن مراقبة دائمة للتحقّق من منهنّ وضعت أوّلاً؛ وبحسب القانون، ينبغي على الملك أن يتبنّى المولود المعني لكي يربّى تربية ملكية بصفته الوريث المقبل للعرش.

4- تنتج قتبانيا البخور، وتنتج حضرموتيتيدا المرّ. ويبادل السكّان بهذه العطور

---

[1] المعينيون. - ح. إ.

[2] مأرب. - ح. إ.

[3] شبورة. - ح. إ.

وسواها بضائع التجار. ويأتي هؤلاء إليهم من إيلانا إلى مينييا في 70 يوماً (إيلانا مدينة تقع في الزاوية الأخرى من الخليج العربي، قرب غزّة التي تدعى إيلانية، كما أشرت من قبل)[4]. ومما يذكر أنّ طريق الحيريين إلى حضرموتيتيدا تستغرق 40 يوماً. ويشغل شطر الخليج العربي الذي يمتدّ على طول العربية ابتداء من منخفض إيلانا، حيّزاً قدره 14000 مرحلة، كما كتب مرافقو الإسكندر وأناكسيكرات. بيد أنّ هذا الرقم مبالغ فيه كثيراً. فشطر هذا الخليج مقابل التروغلوديتي (الذين يقيمون على الجهة اليمنى إذا أبحرت من هيرونبوليس) حتّى بتوليميادا وأماكن صيد الفيلة، يشغل 9000 مرحلة نحو الجنوب مع انحراف بسيط نحو الشرق. ومن هنا شرقاً حتّى المضيق 4500 مرحلة تقريباً. ويشكّل هذا الخليج باتجاه إثيوبيا رأساً بحرية تدعى ديرا عليها مدينة تحمل الاسم عينه يعيش فيها الإيختيوفاغيون. ويقال إن نصب سيسوستريس المصري يقوم هنا؛ وتفيد الهيروغليفات المرسومة عليه بأن الملك عبر الخليج. ويبدو على أرجح تقدير أنّ هذا الملك كان أوّل من أخضع إثيوبيا وترغلوديتي؛ ثمّ توجّه بعد ذلك إلى العربية وعبر من هناك آسيا كلها. ولذلك تجد في كلّ مكان هنا حصوناً تدعى حصون سيوستريس ومعابد هي نموذج طبق الأصل لمعابد الآلهة المصرية. وعند ديرا يتضيّق المضيق حتّى 60 مرحلة. وعلى أيّ حال فإنّ هذا المكان يدعى الآن مضيقاً، بل [مكاناً] واقعاً على الطريق إلى الأمام حيث المسافة بين البرّين تشكّل ما يقارب 200 مرحلة؛ وتقع هناك 6 جزر تلي واحدتها الأخرى مباشرة فتملأ المضيق ولا تترك سوى ممرّ ضيّق ينقلون البضائع عبره من برّ إلى برّ على أطواف. وهذا المعبر هو الذي يدعى الآن مضيقاً. وبعد هذه الجزر يسير الإبحار مع تجويفات الخلجان على طول البلاد التي تنتج المرّ، نحو الجنوب والشرق حتّى بلاد القرفة مسافة 5000 مرحلة. ويقولون، إنّ أحداً لم يتوغل إلى أبعد من هذه البلاد حتّى الآن. ومع أن المدن على هذا الساحل قليلة، إلاّ أن في داخل البلاد مدناً كثيرة وذات كثافة سكّانية عالية. إن هذه هي معلومات إيراتوسفين عن العربية. وينبغي أن تضاف إليها معطيات الكتّاب الآخرين.

5- فبحسب أرتيميدور أن الرأس البحرية على جانب العربية قبالة ديرا، تدعى العقلية. والأعضاء الذكرية لدى سكّان ضواحي ديرا من الرجال مشوّهة، مجدوعة. وإذا أبحرت من هيرونبوليس على طول تروغلوديتي، فإنك تلقى مدينة فيلوتيرا التي دعيت باسم شقيقة بطليموس الثاني. وقد بنى المدينة ساتير الذي أرسل لتقصّي صيد الفيلة، وتروغلوديتيا؛ ثمّ تأتي بعدها مدينة أخرى هي ارسينويا، ثمّ ينبوع مياهه حارّة

ومالحة ومرّة ينبثق من صخرة عالية وينهال في البحر. ويعلو في السهل على مقربة جبل أحمر كالسوريك تليه ميناء تدعى ميناء الفئران[5]، كما تدعى أيضاً ميناء أفروديت، وهي ميناء كبيرة مدخلها مقوّس. وتقع أمامها 3 جزر؛ اثنتان منها يغطيهما شجر زيتون وارف، والثالثة أقلّ تظليلاً، لكنّها مليئة بطيور الغرغر[6]. وبعد ذلك بقليل يقع خليج أكافارت[7] الذي يقع كما خليج الفئران، قبالة طيبايدا، وهو فعلاً ليس خليجاً « نظيفاً» لأنّ الصخور والأرياف الصخرية التي تحت الماء، إضافة إلى الرياح العاصفة أبداً، تجعله في حالة هيجان وحشي. وهنا في عمق هذا الخليج تقع مدينة بيرينيقي.

6- وتقع بعد هذا الخليج جزيرة أوفيودا[8] التي دعيت بهذا الاسم تبعاً لحدث حقيقي: لقد طهّر الملك الجزيرة من الثعابين لأنها كانت تتسبب بموت من يرسو على شواطئها، ولأنه كان في الجزيرة كثير من التوباز. والتوباز حجر شفاف يلمع لمعاناً ذهبياً؛ وليس من السهل أن يُرى نهاراً، لأنه يعكس أشعة الشمس، لكنّ جامعيه يرونه ليلاً. فهؤلاء يضعون إناء في مكان وجود الحجر، ثمّ يأتون نهاراً ويقتلعونه. لقد كانت تقيم في الجزيرة وحدة من الحراس مكلّفة من ملوك مصر بحراسة هذا الحجر الكريم وجمعه؛ وكان الملوك يزوّدون هؤلاء بالمؤن.

7- وتنتشر بعد هذه الجزيرة كثرة من قبائل الإيختيوفاغيين والرحّل. ثمّ تأتي بعد ذلك ميناء سوتيرا[9] التي دعاها باسمها هذا بعض ربابنة السفن الذين نجوا من خطر حقيقي أحدق بهم. وبعد ذلك يتغيّر طابع الساحل تغيّراً شديداً. فلا تعود الطريق على طول الساحل صخرية، وتجاور إلى حدّ ما العربية؛ ويغدو البحر ضحلاً حتّى لا يكاد عمقه يتجاوز 2 أورغيا. وتغطّي سطح البحر أعشاب وطحالب بحرية ترى تحت الماء، وهي ظاهرة غالباً ما تتكرر في هذا المضيق حيث تنمو الأشجار تحت الماء بين النباتات. وفي المضيق كثير من كلاب البحر. ويأتي بعد ذلك الثوران وهما جبلان يظهران من بعيد على شكل هذه الحيوانات. ويليهما بعد قليل جبل آخر عليها معبد لإيزيس، هو نسخة طبق الأصل عن المعبد المصري الذي بناه سيسوستريس، وتأتي بعد ذلك جزيرة مسيّجة بشجر الزيتون وتسيل إليها مياه البحر. وبعد هذه الجزيرة تقع بطليموسيا على مقربة مباشرة من مكان صيد الفيلة؛ وقد أسّس هذه المدينة يفميدس الذي كان فيلاديلف[10] قد أرسله إلى هناك لصيد الفيلة. فأحاط شبه الجزيرة سرّاً، بخندق وسور، ونجح بعد ذلك في كسب ودّ السكّان (الذي كانوا يحاولون إعاقة العمل) وتحويلهم من خصوم إلى أصدقاء.

8- ويصبّ في البحر داخل هذا الفاصل نهر يدعى نهر إستابورا ينبع من بحيرة، ويصبّ بعضاً من مياهه في الخليج، لكنّ الجزء الأعظم منها يلتحق بنهر النيل. ثمّ تأتي بعد ذلك 6 جزر تسمّى لاتومي[11]. يليها ما يدعى الثغر السبئي وقلعة في داخل البلاد بناها توسوح. ثمّ ميناء سبأ ومكان لصيد الفيلة يحمل الاسم عينه. وتدعى المنطقة الواقعة في داخل البلاد بين هذين المكانين تينيسيس؛ يسكنها المصريون المنفيون الذين ثاروا ضدّ بساميتيخ. ويدعى هؤلاء سيمبريتيون, أي الوافدون. وتملك على هؤلاء امرأة تفرض سيطرتها على ميرويه أيضاً - جزيرة في نهر النيل قرب هذه الأماكن. وإلى الأعلى من هذه الجزيرة, على مسافة غير بعيدة, تقع جزيرة أخرى في النهر, وهي مستوطنة لهؤلاء المنفيين أيضاً. وتستغرق الطريق من ميرويه إلى هذا البحر[12], بالنسبة للرحالة المتحزّم جيّداً، 15 يوماً. وتقع قرب ميرويه نقطة التقاء إستابورا وإستاب وإستاسوب مع نهر النيل.

9- ويعيش على امتداد هذه الأنهار، الريزوفاغيون[13] والجيليون[14]. وقد دعوهم بأسمائهم هذه لأنهم يقتلعون الجذور من المستنقع المجاور، ويدقونها بالحجارة ويصنعون منها أرغفة، ثمّ يجففونها تحت أشعة الشمس ويستخدمونها في غذائهم. وتسرح الأسود في هذا المكان. ولكن مع بزوغ مجموعة الكلب، يطرد البعوض الكبير الحجم الكواسر وسواها من الوحوش من هذه الأماكن. كما يقطن على مقربة من هنا، السبيرموفاغيون[15] الذين يستهلكون المكسرات في غذائهم في حال حصول نقص في حبوب الأقماح، فيعدّونها بالطريقة عينها التي يعدّ فيها الريزوفاغيون الجذور. وبعد إيلييا تقع أبراج الحراسة التي بناها ديميتري، ثمّ مذبح كونونا. وينمو في الجزء الداخلي من البلاد كثير من القصب الهندي. ويحمل هذا المكان اسم أرض كوراكي. وكان في أعماق البلاد مكان يدعى إينديرا، وهي مستوطنة يقطنها العراة المسلّحون بأقواس وسهام مصنوعة من القصب ومقسّاة على النار. ويرمي هؤلاء الحيوانات البرية بسهامهم من فوق الشجر في غالب الأحيان، وأحياناً قليلة عن الأرض. وتسرح هنا في هذه الأماكن قطعان كثيرة من الثيران البرية التي يقتات هؤلاء العراة بلحمها ولحوم سواها من الحيوانات البرّية الأخرى. وحينما تشحّ الطرائد تماماً، يشوون الجلود على النار ويكتفون بما شابه من الطعام. وجرياً على عادتهم ينظّمون مباريات برمي السهام للفتيان الذين لم يبلغوا سنّ الرجولة بعد. وتأتي بعد مذبح كونونا ميناء ميلينا. وفوقها تقع قلعة تدعى قلعة كوراي، ومكان صيد كوراي، ثمّ قلعة أخرى،

وبعض أماكن الصيد الأخرى. وتقع بعد ذلك ميناء أنتيفيل، وفوقها الكريوفاغيون[16] الذين يشوّه رجالهم[17] أعضاءهم الذكرية، وتختن نساؤهم وفق التقليد اليهودي.

10- وإلى الأعلى منهم، نحو الجنوب قليلاً، يسكن الكيناموليغيّون[18] الذين يدعوهم السكّان المحلّيون «أغريين»[19]. ويطلق هؤلاء شعر رؤوسهم ولحاهم طويلاً، ويقتنون كلاباً كبيرة جداً. وبهذه الكلاب يصيد الكيناموليغيون الثيران الهندية التي تتسرّب إليهم من الأراضي المجاورة هرباً من ملاحقة الكواسر أو لقلّة الكلأ. وتظهر هذه الثيران هنا في الفترة الواقعة بين الانقلاب الشمسي الصيفي ومنتصف الشتاء. وتقع بعد ميناء أنتيفيل ميناء أخرى تدعى دغل الكولوبيين، وبرينيقي - مدينة سبئية وسبأ- وهي مدينة مهمّة جداً. ثمّ يأتي دغل يفمين. وتقع فوق هذا الدغل مدينة دارابا ومكان لصيد الفيلة يدعى «عند البئر». ويعيش هنا الإليفانتوفاغيون[20] الذين يصيدون الفيلة على هذا المنوال: إذ يرون وهم فوق الشجر، قطيع الفيلة يشق طريقه عبر الأكمة، لا يهاجمونه، إنما يقتربون منه خلسة من الخلف، ويقطعون عروق الحيوانات الضالّة. ومع ذلك فإن بعض الصيادين يجندل الفيلة بسهام مسمومة بصفراء الأفاعي. ويطلق السهم عادة ثلاثة رماة: اثنان من الأمام يمسكون بالقوس، والثالث من الخلف يشدّ الوتر. وثمّة من يلاحظ أن الفيلة تختار أشجاراً محدّدة لترتاح في ظلّها، يأتونها من الجهة الأخرى ويقطعونها من تحت إلى حدّ معيّن. وعندما يأتي الفيل إلى الشجرة ليتكئ عليها، تسقط الشجرة على الأرض ويسقط الفيل معها. وبما أنّ الفيل لا يستطيع أن ينهض لأنّ أطرافه من غير مفاصل ولا تنثني، يقفز الصيادون من على الأشجار ويقطّعون الفيل إلى أشلاء. ويدعو الرحّل هؤلاء الصيادين أكافارتيين[21].

11- وإلى الأعلى من هؤلاء الإليفانتوفاغيين تستوطن قبيلة صغيرة تدعى قبيلة الستروتوفاغيين[22]. ففي بلاد هؤلاء تعيش طيور بحجم الأيل لا تستطيع الطيران، لكنّها تعدو بسرعة كالنعام. ويصيدونها إمّا بالسهام، أو بارتداء جلود النعام: يخفون اليد اليمنى في جلد عنق النعامة ويؤدّون حركة تشبه التفاتات عنق هذا الطير؛ وباليد اليسرى ينثرون أمامهم حبوب القمح من كيس يحملونه معلّقاً على الخصر؛ وبهذه الحبوب يغرون الطيور ويسوقونها إلى واد ضيّق ينتظرها فيه على أهبة الاستعداد فريق آخر من الصيادين الحاملين هراوات ينهالون بها ضرباً على الطيور حتّى يقتلوها. وتستخدم هذه الجلود عندهم ملابس ومفارش. ويحارب هؤلاء الستروتوفاغيين، الإثيوبيون الذين يدعون سيميين، وسلاح هؤلاء، قرون الظباء.

12- ويقطن في جوار هذه القبائل، الأكريدوفاعيون[23]، وهم أكثر سواداً من الآخرين، وأقصر منهم قامة ويعيشون حياة أقصر. فنادراً ما يعيش واحدهم حتّى سنّ الأربعين، لأنّ الديدان تلتهم أجسادهم وهم أحياء، ويقتات هؤلاء على الجراد الذي تسوقه إلى هنا الرياح الجنوبية الغربية والغربية التي تهبّ على هذه المناطق في الربيع. فيرمي الإكريدوفاغيون في الوادي الضيّق قطعاً من الحطب يتصاعد الدخان منها، ثمّ يشعلونها شيئاً فشيئاً (وهكذا يصيدون الجراد)، لأنّ هذه الحشرات عندما تطير فوق الدخان تفقد بصرها وتسقط على الأرض؛ فيجمعونها ويدقونها مع الملح ويصنعون منها أرغفة يستخدمونها في غذائهم.وتمتدّ إلى الأعلى من مناطق سكنى هذه القبائل، منطقة شاسعة غير مأهولة، وغنية بالمراعي والمروج. وكان سكّانها قد هجروها بسبب كثرة العقارب وأبي الشبث فيها, وكان هؤلاء يدعون تيتراغنافيين[24]. ويبدو أن هذه الحيوانات قد تكاثرت في زمن ما تكاثراً دبّ الذعر في أوساط سكّان المكان فولّوا الأدبار.

13- وبعد ميناء يفمين تمتدّ حتّى ديرا والمضيق الذي قبالة الجزر الست, بلاد يقطن فيها الإيختيوفاغيون, والكريوفاغيون, والكولوبيون[25]، وهي تمتدّ حتّى المنطقة الداخلية. ويقع هنا عدد من أماكن صيد الفيلة، ومدن صغيرة، وجزر تقع أمام الساحل. وأكثر السكّان هنا رحّل, ولا يعمل في الزراعة سوى قليل منهم. وفي بعض أجزاء هذه البلاد ينمو كثير من الستيراكس[26]. ويجمع الإيختيوفاغيون الأسماك في وقت الجزر, فيرمونها على الصخور[27] ويحمّرونها تحت أشعة الشمس؛ وبعد أن تشوى الأسماك جيّداً يجمعون عظامها أكواماً ويعجنون لحمها دعساً بأقدامهم ويصنعون منه أرغفة؛ ثمّ يشوون هذه ثانية تحت أشعة الشمس ويستخدمونها في طعامهم. وعندما يكون الطقس عاصفاً ويتعذّر جمع الأسماك, يدقّون أكوام عظام الأسماك ويصنعون منها أرغفة يأكلونها. أمّا العظام الطرية فيلحسونها في حينه. ويأكل بعضهم لحوم القواقع: يضعون القواقع في أحواض ضيّقة يملؤونها بماء البحر, ويرمون لها الأسماك الصغيرة طعاماً, ولدى حصول نقص في الأسماك يستخدمون [لحم القواقع] في طعامهم. وعندهم أيضاً شتّى أنواع الأحواض السمكية التي يأخذون الأسماك منها حسب الحاجة. وبعض سكّان الساحل الخالي من المياه, يتّجهون كلّ 5 أيام إلى داخل البلاد عائلات بكاملها نحو الأحواض المائية وهم ينشدون, وهناك يتمددون على ظهورهم ويعبّون الماء كالثيران إلى أن تنتفخ بطونهم كالطبول؛ ثمّ يعودون ثانية إلى البحر. ويعيش هؤلاء في كهوف أو أكواخ مغطاة بعوارض وألواح من عظام الحيتان والأسماك

أو أغصان شجر الزيتون.

14- ويقـيم الهيلونوفـاغيون[28] تحـت سـقوف مـن دروع السـلاحف الضـخمة الأحجام إلى درجة أنهم يعومون فيها كما المراكب. ويطرح البحر كثيراً من النباتات التي تشكّل أكواماً عالية تشبه الهضاب، فيحفرها بعضهم ويسكن فيها. ويرمي الهيلونوفاغيون أمواتهم طعاماً للأسماك؛ فالمدّ البحري يلتقط الجثامين ويحملها معه. وثمّة من الجزر ثلاث تقع واحدتها وراء الأخرى مباشرة، وهي تدعى: جزيرة السلاحف، وجزيرة الفقمات، وجزيرة الرخاخ. وعلى امتداد الساحل كلّه ينمو شجر النخيل، وأدغال الزيتون والغار على ذلك الجانب من المضيق، كما على الشطر الأكبر من أراضي الجانب الآخر منه. وثمّة جزيرة هنا تدعى جزيرة فيليب، التي يقع قبالتها فوق الساحل مكان لصيد الفيلة يدعى بيفانغيل. ويلي ذلك مدينة أرسينوي وميناؤها، وبعدها ديرا. ويقع فوقها مكان لصيد الفيلة. وتمتدّ وراء ديرا منطقة تنتج العطور، وهي الأولى باستخراج المرّ (وفيها يعيش الإيخيتوفاغيون والكريوفاغيون)، وينمو هنا البيرسيوس[29]، وشجر التين المصري[30]. وفوق هذه المنطقة يقع مكان لصيد الفيلة يدعى ليخي. ويوجد هنا في كثير من الأماكن برك تتجمّع فيها مياه الأمطار؛ وحينما تجفّ هذه البرك تحفر الفيلة بخراطيمها وأنيابها الأماكن التي يوجد فيها ماء وتعثر عليه. وتقع على هذا الساحل حتّى رأس بيثولايا البحرية، بحيرتان كبيرتان؛ إحداهما تدعى بحراً، ومياهها مالحة، والأخرى مياهها عذبة؛ وتعيش في هذه الأخيرة أفراس البحر والتماسيح، وينمو نبات البردى على شواطئها. كما يمكن أن ترى في الضواحي طيور أبي منجل. ولا يختن أفراد القبائل التي تعيش هنا أعضاءهم التناسلية. وتأتي بعد هذه القبائل منطقة ينمو فيها البخور. ويقع هنا أيضاً مكان ما يشبه الحوض المائي الذي تملؤه المياه التي تنحدر من الجبال. ويلي ذلك برج حراسة يدعى برج الأسد، تليه ميناء بيفانغيل. وتقع بعد ذلك بلاد تنمو فيها القرفة الصينية الكاذبة. يليها مباشرة عدد من وديان الأنهار التي ينمو البخور على طول ضفافها، وأنهار تصل حتّى المنطقة التي تنتج القرفة. ويعطي النهر الذي يشكّل حدود هذه المنطقة كثيراً من القصب. ويجري بعدئذٍ نهر آخر وتقع ميناء دافنونت وواد نهري يسمّى وادي أبوللون، ينتج القرفة إضافة إلى البخور والمرّ. وعلى وجه العموم توجد القرفة على مقربة من الأماكن التي تقع في أعماق البلاد. ويقع بعد ذلك جبل إيليفانت الذي يبرز في عرض البحر، تليه مباشرة قناة؛ ثمّ ميناء كبيرة تدعى ميناء بسيغاما، وما يدعى بئر

الكينوكيثـاليين[31]، وأخـيراً نوتـو - كـيراس[32]، وهـي آخـر رأس بحريـة علـى هـذا الساحل، وإذا ما طفنـا حـول هـذه الـرأس واتّجهنـا جنوباً، فإنـه لـيس لـدينا بعـد ذلـك، كما يقـول أرتيميـدور، أوصـافاً لأيّ مـوانئ أو أمـاكن، بسـبب غيـاب المعطيـات. وهـذا نفسه ينسحب على الساحل الذي يلي مباشرة.

15- وتقـع علـى السـاحل الشـهير مـن ديـرا حتّـى نوتـو-كـيراس، أعمـدة ومـذابح بيثولاي، وليخي، وبيفانغيل، والأسد، وهاريمورتا، لكنّ المسافة غير معروفة. ويوجد في هذه البلاد كثير هن الفيلة والأسود التي تدعى نملاً[33]. وتتّجه الأعضاء التناسلية لهذه الأخيرة نحو الخلف؛ ولون وبرها ذهبي لكنّه أقلّ كثافة من وبر الأسود العربية. وتسرح هنـا أيضـاً نمـور عدوانيـة ضـارية، ومثلـها حيوانـات وحيـد القـرن. وهـذه الأخـيرة أصـغر حجماً بقليل من الفيلة، ولكن ليس كما يقول أرتيميدور: «من حيث الطـول مـن العنـق حتّى الذيل» (مع أنه يزعم أنه رأى هذا الحيـوان في الإسـكندرية)، إنمـا تقريبـاً [....][34] من حيث الارتفاع، في أقلّ تقدير وفق النموذج الذي قدّر لي أن أراه بـأمّ عيني. ولا يشـبه لون جلد وحيد القرن لون شجيرة الـبقس، بـل هـو أقـرب إلى لـون الفيـل. أمّـا حجمـه فهـو كحجـم الثـور، ويـذكّرنا مظهـره بمظهـر الخنزيـر الـبري، خاصـة سـحنته، مـا عـدا الأنف، الذي يحمل قرناً معقوفاً نحـو الأعلـى وأكثـر صـلابة مـن أيّ عظـم كـان. وهـذا القرن هو سلاح هذا الوحش، تمامـاً مثلمـا الأنيـاب لـدى الخنزيـر الـبري. ومـن المـتن حتّـى البطن تطوّق جسـم هـذا الحيـوان ثنيتـان مـن الجلـد كأنهمـا حلقتـان أفعوانيتـان: واحـدة على الغارب، والأخرى على الحقو. وأنا أعطي هذا الوصف بحسـب النمـوذج الـذي رأيتـه لهذا الحيوان بأمّ عيني. ويروي أرتيميدور علاوة على ذلـك أن هـذا الحيـوان يميـل خاصـة نحو مقارعة الفيلة على المراعي؛ فهو يلطم بطن الفيل ببوزه فيبقره بقرنـه، إذا لم يبـادره الفيل بخرطومه ونابيه.

16- وتسـرح في هـذه الأمـاكن أيضـاً، الكاميلوبـارد[35] الـتي لا تشـبه النمـور البتّة، لأنها بلون جلدها المبرقش تذكّرنا علـى الأصحّ بالأيائـل الفتيـة المنقّطـة المخططـة. والأجزاء الخلفية من هذه الحيوانات أقصـر بكـثير مـن الأجـزاء الأماميـة، ولـذلك تبـدو كأنها تجلس على مؤخراتها الـتي يقـارب علوهـا علـوّ مـؤخرات الـثيران، مـع أن طرفيهـا الأمـامين ليسـا أقصـر مـن الطـرفين الأمـاميين للجمـل. وتتطـاول أعناقهـا مسـتقيمة نحـو الأعلـى، ورؤوسـها مرتفعـة أكثـر مـن رؤوس الجمـال. وأنـا أرى أن هــذه البنيــة غـير المتناسقة لجسد هذا الحيوان تجعله بطيء الحركة وغير قادر علـى أن يتحـرّك بسـرعة

كما يزعم أرتيميدور، الذي يرى أنّ أيّ حيوان آخر لا يفوقه سرعة. عدّاك عن هذا إنّ هذا الحيوان ليس حيواناً بريّاً بل على أغلب الظّن أنه حيوان منزلي، لأنّ سمات الوحشية غير ظاهرة عليه. وبحسب أرتيميدور إن السفينكس[36] يسرح هنا كذلك، والكينوكيثال[37]. والكيب[38] الذي له سحنة تشبه سحنة الأسد، وجسد يشبه جسد الفهد، وحجمه كحجم الظبي. كما توجد في هذه البلاد ثيران بريّة لاحمة حجمها أكبر من حجم ثيراننا المعروفة، وهي أسرع منها بكثير، ولونها أحمر. ونلقى هنا على حدّ قول أرتيميدور، الكروكوتّ[39] أيضاً، وهو حيوان خليط من الذئب والكلب. وعلى وجه العموم فإنّ قصص ميترودور السكيبسيسي التي وردت في كتابه: «الاعتياد»، تشبه الحكايات الخرافية، ولذلك ينبغي أن تهمل. ويذكر أرتيميدور أيضاً ثعابين يبلغ طول واحدها 30 ذراعاً، تقتل الفيلة والثيران؛ بيد أنه يظهر حذراً، في أقلّ تقدير، لدى تحديد أحجام الثعابين في هذا الجزء من العالم، لأنّ الثعابين الهندية أكثر خرافية[40]، ومثلها الليبية التي يروى أن الأعشاب تنمو عليها[41].

17- ويعيش التروغلوديتي حياة البدو الرحّل. ويقف على رأس كلّ قبيلة من قبائلهم زعيم حاكم مطلق الصلاحيات. والنساء والأبناء عندهم شراكة بين جميعهم، ما عدا نساء الزعيم وأبناءه. ومن يغوي زوجة الزعيم ينبغي أن يؤدّي له معزاة غرامة. وتحرص النساء على تكحيل حواجبهن بدقّة بمادّة تدعى «ستيبي»[42]، ويعلّقن في أعناقهنّ قواقع وصدفات بدل التمائم. ويحارب التروغلوديتي من أجل المراعي؛ وفي أوّل الأمر يشقّون طريقهم بالكلمات والعراك بالأيدي، ثمّ برمي الحجارة، وما أن يصاب الخصم بجراح حتّى يبادروا إلى الأقواس والسهام والسيوف. ثمّ توقف النساء الاقتتال إذ تخرجن إلى الأمام وتقفن بين المتقاتلين متوسلات الكفّ عن القتل. ويتألّف قوت هذه القبائل من اللحوم والعظام التي يدقّونها أوّلاً مع بعضها، ثمّ يلفّونها في الجلود ويشوونها؛ وفي بعض الأحيان يعدّ الطعام طبّاخون يدعونهم «نجسين»[43]. كما يستخدمون طرائق أخرى لإعداد طعامهم. وعلى هذا النحو لا يأكل هؤلاء اللحم فقط، بل يأكلون العظم والجلد أيضاً؛ ويشربون خليطاً من الدم واللبن. أمّا فيما يخصّ مشروباتهم فإنّ أكثرهم يشرب نقيعاً من الباليور[44]، بينما يشرب زعماؤهم العسل الممزوج بالماء، ويستخلصون هذا العسل من نوع محدّد من الزهور. وعندما يبدأ فصل الرياح الموسمية، يحلّ عندهم فصل الشتاء (تهطل عندئذٍ الأمطار)؛ أمّا باقي فصول السنة فهي عندهم صيف. وهم يتجولون عراة دائماً، إذ لا يرتدون سوى الجلود،

ويحملون الهراوات. ولا يكتفي هؤلاء بتشويه أجسادهم، إنما يختن بعضهم نفسه كما يفعل المصريون. ويطوّق الميغاباريون الإثيوبيّون هراواتهم بأشواك حديدية، ويحملون الرماح والتروس المصنوعة من جلود الحيوانات الطرية الخام، بينما يتسلّح الإثيوبيون الآخرون بالرماح، والأقواس والسهام. ويدفن بعض التروغلوديتي موتاهم مربوطة أعناق الجثامين إلى القدمين برباط من الباليور، ثمّ يرمونهم في اللحظة عينها بالحجارة وهم يصخبون ويقهقهون، وعندما تغطي الحجارة الجثمان تماماً، يضعون على كوم الحجارة قرن ماعز ويمضون. وعندما يرتحلون ليلاً يعلقون على ذكور حيوانات النقل أجراساً لإبعاد الوحوش عنهم، كما يستخدمون ضدها المشاعل والسهام؛ ويصرفون الليل كلّه ساهرين على حراسة قطعانهم ينشدون أغنية ما حول نار يشعلونها.

18- وبعد أن يصف أرتيميدور التروغلوديتي وجيرانهم الإثيوبيين، يعود إلى العرب. وإذ يبدأ من بوسيديوس، يباشر أرتيميدور وصف العرب الذين يجاورون الخليج العربي، ويعيشون قبالة التروغلوديتي. فيقول، إن بوسيديوس تقع أبعد من خليج إيلانا. ويجاور بوسيديوس دغل من شجر النخيل مرويّ جيّداً، وما يزيد من أهمية هذا الدغل أنّ المحيط المجاور كلّه قاحل، ومحروم من الماء والظلّ. وخصوبة النخيل هنا تثير الدهشة. وقد عيّنوا للعناية بهذا الدغل رجلاً وامرأة، وعُهد إليهما بهذه المهمّة لأنهما ينتميان إلى سلالة شهيرة. ويرتدي هذان الجلود ويقتاتان بثمار النخيل. وترغمهما كثرة الوحوش هنا على بناء أكواخ فوق الشجر واللجوء إليها عند الضرورة. وتأتي بعد ذلك جزيرة الفقمات التي حملت اسمها هذا بسبب الأعداد الكبيرة من هذه الحيوانات التي تعيش عليها. وعلى مقربة من الجزيرة تقع رأس بحرية تمتدّ حتّى ما يسمّى «صخور» العرب الأنباط ومنطقة فلسطين إلى حيث يحمل المينيون والحيريون والقبائل المجاورة الأخرى أحمالهم من العطور. ثمّ يلي ذلك ساحل آخر كان يدعى في الماضي ساحل المارانيتيين؛ ويمارس فريق من هؤلاء العمل الزراعي، والفريق الآخر يعيش في الخيام. ويدعى هذا الساحل الآن ساحل الهاريندِيين الذين استأصلوا شأفة المارانيتيين غدراً. فقد هاجموا هؤلاء بينما كانوا يحتفلون بأحد أعيادهم الشعبية الذي كانوا يقيمونه كلّ أربع سنوات، ولم يكتف الهاريندِيون بإبادة المشاركين في الاحتفال كلّهم، إنما أبادوا القبيلة عن بكرة أبيها، ويلي ذلك خليج إيلانا والنبطية، وهي منطقة فيها كثافة سكّانية عالية ومراعي خصبة وجميلة. ويعيش النبطيون على الجزر التي تقع على مقربة من الشاطئ. وقد عاش هؤلاء في الماضي بسلام، إلاّ أنّهم أخذوا مؤخراً

يغيرون في قواربهم على المبحرين من مصر. إلاّ أنهم دفعوا ثمن عدوانيتهم غالياً حينما أبحر إليهم أسطول وخرّب بلادهم ونهبها. ويمتدّ بعد النبطية سهل غني بالغابات والمياه ومليئ بشتّى أنواع المواشي المنزلية، لاسيما البغال. ويسرح هنا كثير من الإبل البرية، والأيائل، والظباء، وكذلك الأسود، والنمور والذئاب[45]. وتقع أمام هذا السهل جزيرة تدعى ديا. ويأتي بعد ذلك بحوالي 500 مرحلة، خليج تحيط به الجبال، ومدخله وعر جدّاً. ويعيش حول هذا الخليج صيادون يصيدون الطرائد البرّية. وتليه ثلاث جزر موحشة مليئة بشجر الزيتون، لكنّ شجرها هذا لا يشبه الشجر الذي ينمو عندنا، فهو نوع غريب؛ ونحن ندعو هذا الشجر، بشجر الزيتون الإثيوبي؛ ولعصير ثمره خاصيات دوائية. وبعد هذا مباشرة يمتدّ شاطئ صخري، يليه شاطئ شاقولي يمتدّ على ما يقارب 1000 مرحلة، والإبحار بمحازاته صعب بسبب نقص المراسي والمحطات الشراعية، فعلى امتداده كلّه يرتفع جبل عال وشاقولي. ثمّ تمتدّ بعد ذلك حتّى البحر، مرتفعات صخرية تشكل خطراً على البحارة، لأنه لا فرار منها، خاصة عندما تهب الرياح الموسمية وتهطل الأمطار الموسمية. ثمّ يقع خليج تنتشر فيه جزر مبعثرة؛ وتجاور هذا الخليج ثلاث هضاب من الرمل الأسود عالية جدّاً. وبعدها تقع ميناء خارموفا التي يبلغ امتداد محيطها حوالي 100 مرحلة، مدخلها ضيّق وخطر بالنسبة لأيّ نوع كان من السفن. ويصبّ في هذه الميناء نهر، وثمّة في وسط خليجها جزيرة تكسوها الغابات الكثيفة، وأرضها صالحة للعمل الزراعي. ويمتدّ بعد ذلك شاطئ شديد الوعورة. وبعده عدد من الخلجان ثمّ منطقة الرحّل الذين يحصّلون موارد عيشهم من الإبل. فيركبونها في معاركهم، وأثناء تنقّلهم ويستهلكون لبنها ولحومها في غذائهم، ويجري عبر بلادهم نهر يحمل معه رمالاً ذهبية، لكنّ السكّان لايعرفون تصنيعه. ويدعى سكّان هذه البلاد ديبيين، فريق منهم بدو رحّل، والفريق الآخر فلاّحون. وأنا أتجاهل العدد الأكبر من أسماء هذه القبائل، لأنها لا أهمية لها، ولأن أسماءها غريبة غير معتادة. وبعد الديبيين تسكن قبائل أكثر تحضّراً في منطقة مناخها معتدل، لأنّ بلادها غنية بالمياه وغالباً ما تهطل فيها أمطار غزيرة. وعند هؤلاء ذهب يستخرج من الأرض، لكنّه ليس على شكل ذهب الرمال، إنما على شكل فلزّات لا تحتاج سوى قليل من التنقية من الشوائب، وأصغر هذه الفلزات يقارب حجمها حجم حبّة البلح، بينما يقارب حجم الوسط منها حجم حبّة الزعرور، ويقارب حجم أكبرها حجم حبة عين الجمل. ويصنع السكّان من هذه الفلزات عقوداً، فيثقبونها ويعلّقونها على خيط ويضعون بينها حجارة

شفافة؛ وهم يحملون مثل هذه العقود في أعناقهم وعلى معاصمهم. كما يبيعون الذهب لجيرانهم بأسعار زهيدة: بثلاثة أضعافه من النحاس، وضعفين من الفضّة، يرغمهم على ذلك عدم معرفتهم بتقنية تعدين الذهب، وقلّة الأشياء القابلة للتبادل من تلك التي يحتاجونها أكثر لتلبية ضرورات عيشهم.

19- وتجاور منطقة هذه القبيلة بلاد شديدة الخصوبة تسكنها قبيلة كبيرة جدّاً تدعى قبيلة السبئيين، حيث ينمو المرّ والبخور والقرفة. وتلقى على الساحل البلسم ونبات عطري آخر سرعان ما يفقد رائحته. وهناك أيضاً نخيل عطريّ، وقصب عطريّ، وتسعى هناك ثعابين حمراء قاتمة طول واحدها شبر واحد، وتقفز هذه حتّى الخصر، ولا شفاء من لدغتها. وبسبب وفرة الغلال، ينغمس هذا الشعب في اللهو ويعيش لامبالياً. وينام البسطاء هنا متوسدين جذوع الأشجار التي يقطعونها[46]. وتصل البضائع دائماً إلى الذين يعيشون على مقربة، فيحملونها إلى الذين يقطنون بعدهم من القبائل الأخرى وصولاً إلى سوريا وبلاد ما بين النهرين. وإذا يخدّر هؤلاء أنفسهم بالعطور، يتخلّصون بعد ذلك من الخدر بإحراق الإسفلت وشيّ رؤوس الماعز[47]. وتدعى مدينة السبئيين مأرب التي تقع على جبل تكسوه غابة كثيفة. ويقيم فيها الملك الذي يقضي بين الناس ويفصل في خلافاتهم. ولا يسمح للملك أن يغادر القصر الملكي؛ وإذا [ما خرج من القصر]، فإنّ المتنبّئ يوعز فوراً لحشد من الناس فيرميه بالحجارة. ويعيش الملك وحاشيته عيشة باذخة منعّمة. ويعمل قسم من الناس العاديين بالزراعة، والقسم الآخر بتجارة العطور والأفاويه، سواء التي تنتج محلّياً، أو تلك التي يأتون بها من إثيوبيا، إذ يبحرون إلى هناك عبر المضيق في قوارب مطاطية. والعطور والأفاوية وفيرة في هذه البلاد لدرجة أنهم يستخدمون القرفة، والقرفة الصينية وسوى ذلك من النباتات العطرية، بدلاً من الحطب القشاش والمحروقات الأخرى. كما ينمو في بلاد السبئيين نبات اللاريمن[48] أيضاً، وهو أكثر النباتات العطرية أريجاً. وقد جعلت تجارة هذه السلع من السبئيين والحيريين أغنى قبيلتين بين القبائل كلها؛ فهؤلاء يملكون كثرة كثيرة من الأشياء الذهبية والفضّية كالملاعق، وثلاثيات القوائم، والأكواب، والكؤوس. وقد تميّزت موجودات منازلهم بالفخامة والبذخ: الأبواب، والجدران، والسقوف مطعّمة بالعاج، والذهب، والفضّة، والحجارة الثمينة. إنّ هذه هي معطيات أرتيميدور عن هذه القبائل. أمّا فيما تبقى فهو يتّفق مع إيراتوسفين، لكنّه يقتبس جزئياً عن مؤرّخين آخرين[49].

20- فهو يقول مثلاً، إنّ بعضهم يدعو هذا البحر بالبحر الأحمر تبعاً للون

مياهـه الناشئ عن انكسار ضوء الشمس عندما تكون في السمت، أو عن الجبال الملوّنة بالأحمر بسبب القيظ اللاهب، لأنهم يفترضون، كما يقول، إن هذا يحصل للسببين معاً. أمّا كتيسيوس الكنيدي فيتحدّث عن نبع مياه حمراء (لون الصخر الناري) يصبّ في البحر. ويروي أغاثارخيدس، مواطنَ كتيسيوس، على لسان المدعو بوكس، وهو فارسي العرق، ما يلي: لقد طاردت لبوة مسعورة يوماً، سرب جياد إريثرا (وهو فارسي أيضاً) حتّى البحر، فعبرت الجياد إلى إحدى الجزر، عندئذ بنى إريثرا طوفاً، وكان أوّل من عبر إلى الجزيرة. ولّما رأى أنّ الجزيرة ملائمة جدّاً للاستيطان، قاد الجياد وعاد بها إلى بيرسيدا، وأرسل من هناك مستوطنين إلى تلك الجزيرة كما إلى الجزر الأخرى والساحل، وأطلق على هذا البحر اسمه. ولكنّ آخرين قالوا، إن إريثرا هو ابن برسيوس وملك هذه البلاد. ويحدّد بعضهم المسافة من القسم الضيّق في الخليج العربي حتّى آخر بلاد القرفة بـ 5000 مرحلة، من غير أن يوضّح بدقّة، في أيّ اتجاه: جنوباً أو شرقاً. ويروى أنهم يجدون في مناجم الذهب، الزمّرد والبريل. ويقول بوسيدونيوس إنّ في أرض العرب ملح عطري.

21- لقد كان النبطيون والسبئيون أوّل قبائل العربية السعيدة فوق سوريا. لكنّهم كانوا في أحيان كثيرة يشنّون عليها غزوات نهب وسلب، إلى أن أخضع الرومان هذه البلاد لسلطانهم. ويخضع هؤلاء وسوريا الآن للرومان. ومدينة النبط الرئيسة هي المدينة التي تدعى بيترا[50]، لأنها تقع في مكان مستو أملس، تحرسه الصخور من جوانبه كلها؛ وهذا المكان من الخارج شاقولي شديد الانحدار، وفي داخله ينابيع مياها غزيرة وصالحة للاستخدام المنزلي وريّ البساتين. والشطر الأكبر من المكان الممتدّ وراء أسوار المدينة، صحراوي مقفر، خاصة باتجاه اليهودية. وهنا تمتدّ أقصر طريق إلى هيريكونت، إذ لا يستغرق اجتيازها سوى 3-4 أيام، وخمسة أيام إلى دغل النخيل. والمدينة يحكمها دائماً ملك ينتمي إلى سلالة ملكية. ويساعد الملك حاكم، هو عادة أحد أصدقائه، وكان هذا يدعى «أخا» الملك. وفي المدينة نظام دولة رائع. فأثينودوروس الفيلسوف ومرافقي، زار البيترائيين ومكث عندهم، وتحدّث عن بناء دولتهم بإعجاب شديد. وعلى حدّ قوله، إنه أدرك هنا كثيراً من الرومان والأجانب الآخرين. وقدّر له أن يتابع هناك الدعاوى القضائية التي كان يرفعها الأجانب بعضهم ضدّ بعض، وضدّ السكّان المحلّيين، لكنّ السكّان المحلّيون لا يدّعي واحدهم على الآخر أمام القضاء أبداً، بل يعيشون في سلام ووئام.

22- ونحن لم نتعرّف على كثير من السمات الفريدة للعربية إلاّ بفضل الحملة التي شنّها الرومان على العرب منذ بعض الوقت، وقادها إيليوس غالوس. لقد أرسل أغسطس قيصر غالوس لدراسة هذه القبائل والأماكن في العربية وإثيوبيا أيضاً. فقد رأى أغسطس أنّ تروغلوديتي المتاخمة لمصر، تقع في جوار العرب، وأنّ الخليج العربي الذي يفصل العرب عن التروغلوديتي ضيّق جدّاً. ولذلك عزم على أن يجعل من العرب أصدقاء، أو خاضعين. كما كان لديه على وجه العموم اعتبار آخر: منذ القدم شاعت عنهم شائعة تفيد بأنهم يملكون ثروات مهولة، لأنهم كانوا يبادلون بعطورهم وأفاويههم وحجارتهم الثمينة، الفضّة والذهب، لكنّهم لم ينفقوا يوماً أي شيء من هذا على التبادل. وعلى هذا النحو رام أغسطس أن يكتسب بهؤلاء أصدقاء أثرياء، أو يخضع أعداء أثرياء. وقد عزّز عزم أغسطس العون الذي كان ينتظره من النبط، فقد كان هؤلاء «أصدقاءه»، ووعدوا بتقديم كلّ عون ممكن للرومان.

23- وفي هذه الظروف شنّ غاللوس حملته. لكنّ سيلليوس حاكم النبط خدعه. فمع أن سيلليوس وعد غاللوس بأن يكون دليله في حملته، وأن يزوّد قوّاته بكلّ ما هو ضروري، وأن يساعده في شتّى المجالات، إلاّ انه خدعه وخانه في كلّ شيء: لم يرشده إلى الطريق البحرية الآمنة، ولا إلى الطريق البرية الآمنة، ففي البرّ قاد الرومان إلى أماكن ليس فيها طرقات، أو إلى طرقات إلتفافية عبر أماكن قاحلة؛ وفي البحر قادهم على امتداد سواحل صخرية خالية من المراسي، أو عبر مياه ضحلة، أو بين صخور تحت الماء. لكنّ الأذى الأكبر تلقاه الرومان في هذه الأماكن من المدّ والجزر. وكانت خطيئة غاللوس الأولى أنه أمر ببناء سفن قتالية، مع أنّ أيّ حرب بحرية لم تكن تنتظره. ففي البرّ لم يكن العرب مقاتلين شجعاناً، لأنهم على وجه العموم كانوا تجاراً، فما بالك في البحر. وكان غاللوس قد أمر ببناء 80 سفينة: بثلاثة أنساق من المجاديف، ونسق واحد من المجاديف، وسفن خفيفة في كليوباتريدا قرب القناة القديمة التي تصل النيل بالخليج. وما إن أدرك غاللوس الخديعة حتّى بنى 130 سفينة شحن، وأبحر عليها ومعه 10.000 من جنود المشاة الرومان الذين كانوا مقيمين في مصر، إضافة إلى الحلفاء؛ وكان بين هؤلاء الأخيرين 500 يهودي، و1000 من النبط كان يقودهم سيلليوس. وبعد معاناة مريرة، وشظف وحرمان وصل غاللوس في اليوم الخامس عشر إلى لوكوس كوموس[51]، وهي مركز تجاري كبير في أرض النبط. وبسبب الإبحار غير الموفّق، وليس بسبب أيّ عدوّ كان، فقد غاللوس كثيراً من

السفن، بل غرق بعضها مع طاقمه. وكان غدر سيلليوس هو السبب في وقوع هذه الخسائر، فقد أعلن هذا أنه لا توجد طرق برّية إلى لوكوس كوموس، مع أن التجار مع قوافلهم من الجمال يأتون من بيترا إلى هنا ويذهبون من هنا إلى بيترا بسهولة وأمان، ولا تقلّ حشودهم من الجمال والناس عن حشود الجيوش.

24- وعلى وجه العموم وقع هذا كلّه لأنّ الملك عبادة لم يول أهمية للشؤون العامّة، خاصة العسكرية منها (وهنا تكمن حالة الضعف المشترك لدى الملوك العرب) وترك كلّ شيء لسيلليوس. وكان هذا غدّاراً مخاتلاً في كلّ شيء، وأنا أرى أنه سعى إلى استكشاف هذه البلاد لكي يخضع مع الرومان عدداً من مدنها وقبائلها، ثمّ ينصّب نفسه ملكاً عليها كلّها بعد أن يهلك الرومان من الجوع والعطش والأمراض وسوى ذلك من المآسي التي دبّرها هو نفسه. ومع ذلك نزل غاللوس في لوكوس كوموس، لكنّ قواته كانت قد أصيبت باثنين من الأمراض المحلّية: الأسقربوط، ووهن في الساقين[52]، ويظهر المرض الأوّل في ارتخاء عضلات الفم، والثاني في وهن حركة الساقين بسبب الخواص المدمّرة التي تحملها مياه المكان وأعشابه. وعلى أيّ حال كان غاللوس مرغماً على أن يقضي الصيف هناك والشتاء بانتظار شفاء جنوده المرضى. وتنقل شحنات العطور والأفاوية من لوكوس كوموس إلى بيترا، ومن هناك إلى رينوكولورا الواقعة في فينيقيا على مقربة من مصر، ثمّ من هناك إلى المدن الأخرى. ولكنّ أكثر هذه الشحنات ينقل الآن في النيل إلى الإسكندرية؛ وينقلونها من العربية والهند إلى ميوس هورموس[53]، ثمّ يحملونها على الجمال إلى كوبتوس في منطقة طيبة على قناة النيل، ومنها إلى الإسكندرية. وبعد أن ترك لوكوس كوموس من جديد، سار غاللوس عبر أماكن اضطر فيها بسبب مخاتلة الأدلاّء إلى نقل الماء على الإبل. ولذلك لم ينجح في الوصول إلى أرض أريتيس قريب عبادة، إلاّ بعد أيام كثيرة. والحقيقة أن أريتيس استقبله بودّ وعلى الرحب والسعة، وقدّم له الهدايا، لكنّ غدر سيلليوس جعل عبور هذه البلاد مضنياً. فقد صرف غاللوس 30 يوماً حتّى عبر البلاد التي لم يكن فيها سوى الحنطة الرومية وقليل من الثمر، والسمنة البقرية بدلاً من زيت الزيتون، لأنهم ساروا في أرض ليس فيها طرقات. وكان يشغل المنطقة التالية التي وصل إليها القائد الروماني البدو الرحّل، إلاّ أن الشطر الأكبر منها هو صحراء حقيقية. وكانت هذه المنطقة تدعى أرارينا؛ وكان ملكها يدعى سبأ. وعبر هذه الأرض قدّر لغاللوس أن يجتاز طرقات شديدة الوعورة استغرقت منه 50 يوماً أخرى حتّى وصل

مدينة نجران الواقعة في بلاد مسالمة وخصبة. فهرب ملك البلاد، وأُخذت المدينة بقوة السلاح. ومن هنا وصلت القوات بعد 6 أيام إلى نهر وقعت عليه معركة الرومان مع البرابرة، فخسر فيها هؤلاء ما يقارب 10.000 مقاتل، بينما لم يخسر الرومان سوى مقاتلين اثنين. فهؤلاء البرابرة الذين لم يكونوا مقاتلين في أيّ حال من الأحوال، لم يكونوا يحسنون استعمال الأسلحة، خاصة الأقواس، والرماح، والسيوف، والمقاليع؛ وكان أكثرهم مسلّحاً ببلطات حربية حادة الطرفين. وبعد المعركة مباشرة تمّ الاستيلاء على مدينة تدعى آسكا كان الملك قد غادرها هارباً. ومن هنا وصل غاللوس إلى مدينة أفرولا فأخذها من غير قتال وترك فيها وحدة حماية. ثمّ أعدّ القمح والتمور مؤونة للطريق، ووصل إلى مارسيابا التي كانت لقبيلة الرامانيتيين الخاضعة لإيلاسار. فهاجم غاللوس المدينة وحاصرها 6 أيام، لكنّه أرغم على التراجع بسبب نقص المياه. وبحسب أقوال الأسرى إنه كان يقع على بعد مسير يومين عن البلاد التي تنتج العطور والأفاوية، بيد أنه صرف 6 أشهر في المعابر بسبب مخاتلة الأدلاّء. ولم يدرك أنه كان ضحية نيّة شريرة إلاّ في وقت متأخر جدّاً، فعاد أدراجه عبر طرقات أخرى. فوصل نجران في اليوم التاسع، حيث وقعت معركة، ومن هنا وصل بعد أحد عشر يوماً إلى جبتافريتا[54]، وقد دعي المكان بهذا الاسم لأنّ فيه 7 آبار. وانطلق من هناك عبر بلاد مسالمة، فوصل إلى قرية خآلا، ثمّ إلى قرية أخرى تدعى مالوفا واقعة على نهر. وامتدت طريقه بعد ذلك عبر منطقة صحراوية ماؤها قليل، حتّى وصل إلى قرية أجرا. وتقع هذه القرية في بلاد عبادة عند البحر. لكنّ طريق عودة غاللوس استغرق 60 يوماً، بعد أن صرف على المسير الأوّل 6 أشهر. ومن هنا قاد قواته إلى ميوس هورموس في أحد عشر يوماً؛ ثمّ نقل أحماله إلى حيوانات نقل وسار برّاً إلى كوبتوس، ومنها بلغ الإسكندرية مع كلّ من ابتسم له الحظ ونجا من تلك الحملة. أمّا الجنود الآخرون فقد فقدهم، ولكن ليس بسيوف الأعداء، بل راحو ضحية الأمراض، والنوازل، والجوع، والسير في مناطق خالية من الطرقات؛ أمّا الحرب نفسها فلم تأخذ سوى 7 أشخاص. ولهذه الأسباب لم تأت هذه الحملة بفوائد تذكر بالنسبة لمعرفة هذه المناطق، مع أنّها ساعدت على هذا بعض الشيء. أمّا سيلليوس، الذي تقع عليه مسؤولية فشل الحملة، فقد نال عقابه في روما؛ ومع أنه تظاهر بصداقته للرومان، إلاّ أنه إضافة إلى هذه الخيانة، اتهم بجرائم أخرى وقطعت رأسه.

25- وتنقسم بلاد العطور والأفاويه إلى أربعة أقسام، كما كنت قد

أشرت[55]. ويقولون إن البخور والمرّ من العطريات التي يستخرجونها من الأشجار، أمّا القرفة الصينية فيجمعونها من المستنقعات. وبحسب بعضهم إن الكمّ الأكبر من هذه الأخيرة يأتي من الهند، بينما يأتي أفضل البخور من بيرسيدا. وبحسب رأي آخر أنّ العربية السعيدة كلّها تنقسم إلى 5 ممالك يعيش في إحداها المقاتلون الذين يقاتلون عن جميعهم من غير استثناء، ويعيش في الثانية الفلاّحون الذين يمدّون الآخرين بالمؤن، ويعيش في الثالثة الحرفيون؛ وفي الرابعة والخامسة الذين ينتجون البخور والمرّ؛ ومنهما أيضاً يستخرجون القرفة الصينية، والقرفة، والناردين. ولا تنتقل المهنة عندهم من شخص لآخر، بل تبقى داخل العائلة. ويستخرجون الكمّ الأكبر من النبيذ من النخيل. والأخ عندهم مقدّم على الابن. وينال أعقاب السلالة الملكية السلطة الملكية وفق حق البكورية، ولهم أيضاً حقّ شغل المناصب العليا الأخرى. ويملك الأقارب كلّ شيء جماعة، لكنّ الزعامة للأكبر سناً في العائلة. ولكلّ أفراد العائلة زوجة واحدة، يعاشرها من يدخل البيت أوّلاً، إذ يضع عصاته أمام الباب (تقضي العادة عندهم بأن يحمل كلّ رجل عصاة). لكنّ الزوجة يجب أن تبيت الليل عند الأكبر سناً من أفراد العائلة. ولذلك يعدّ الأولاد كلهم أخوة. ويعاشر هؤلاء جنسياً حتّى أمهاتهم. وعقوبة الزنى عندهم الموت. والزاني في هذه الحال، هو كلّ من ينتمي إلى عائلة أخرى. فقد كان لأحد الملوك ابنة ساحرة الجمال، لها 15 أخاً أحبّها كلّ منهم حباً جارفاً، ولذلك كانوا يترددون إليها من غير انقطاع إلى أن أرهقتها مداعباتهم، فابتكرت الحيلة الآتية. لقد صنعت لنفسها عصياً شبيهة بعصيّ إخوتها. وفي كلّ مرّة يغادرها أحد أخوتها، تضع أمام بابها عصاة تشبه عصاة أخيها الذي غادرها، وبعد قليل تضع العصاة الأخرى حتّى إذا ما جاء أحدهم لا يجد عصاة تشبه عصاته. ومرّة كان أخوتها كلّهم في السوق، فجاء إليها واحد منهم ورأى عصاة أمام الباب، فظنّ أن عندها أحداً ما. ولكن بما أنه كان قد ترك إخوته كلّهم في السوق، فقد ظنّ أنّ عند أخته عشيقاً لها. عندئذ هرع إلى والده وجاء به إلى البيت، ليكتشف أن ظنّه بأخته ليس صحيحاً.

26- إن النبط شعب عقلاني اقتصادي حكيم. ولذلك ينزلون عقاباً علنياً بمن يبذر أرزاقه، ويكافئون علناً من يضاعفها. وبما أنّ العبيد عندهم قلّة نادرة، فهم يلجؤون أكثر ما يلجؤون إلى خدمات الأقارب، أو يتبادلون الخدمات بعضهم مع بعض؛ وينسحب هذا التقليد حتّى على الملوك. ويقيمون ضيافة لثلاثة عشر شخصاً، ويكون في كلّ وليمة موسيقيان. وغالباً ما يقيم الملك ولائم باذخة، ولا يسمح لأي من

المشاركين فيها أن يشرب أكثر من 11 كوباً، وفي كلّ مرّة يبدّلون الكوب بكوب ذهبيّ آخر. ويحافظ الملك على صلة وثيقة جدّاً مع الشعب، حتّى أنه يدير شؤونه الخاصة من غير خدم، بل وأحياناً ما يردّ بنفسه الخدمة بمثلها. وليس نادراً أن يقدم كشفاً عن عمله أمام مجلس الشعب، وأحياناً ما يناقشون طريقة عيشه. ومساكن النبط غالية الثمن لأنها مبنية من الحجر. ولا تحاط مدنهم بأسوار لأنهم يعيشون بسلام ووئام. والشطر الأكبر من البلاد غنيّ بالغلال، ما عدا الزيتون؛ ويستخدمون زيت السمسم بدلاً من زيت الزيتون. وصوف أغنامهم أبيض اللون، وأحجام ثيرانهم كبيرة، ولكن ليس في البلاد جياد، فتحلّ الإبل محلّها. ولا يرتدي الناس هنا الجلابيب، بل يحيطون أوراكهم بمآزر، وينتعلون الصنادل، حتّى الملوك الذين يرفلون بالملابس القرمزية، لا يتميّزون عن الآخرين في هذا. ويحملون لهم بعض السلع من الخارج من غير عائق، وثمّة سلع أخرى يمنع استيرادها قطعاً، إذا كانت تنتج محلّياً، كالذهب، والفضّة، وأكثر المنتوجات العطرية. أمّا النحاس، والحديد، والملابس القرمزية، والميعة العطرية، والقرفة البيضاء، والمسكوكات، واللوحات، والتماثيل فاستيرادها كان مباحاً لأنها لا تصنع محلّياً. ويرى النبط في الأجساد الميتة قاذورات، بحسب مأثور هيراقليط الذي يقول:

أسرع بإبعاد الأموات قبل إبعاد القاذورات.

ولذلك يدفنون حتّى ملوكهم قرب أكوام القاذورات. ويبجّل النبط الشمس فيبنون لها مذبحاً على سطح البيت؛ ويسكبون لها كلّ يوم ويحرقون البخور.

27- وعندما يقول هوميروس:

إلى الإثيوبيين السود توغلّت، وحللت ضيفاً على

الصيدونيين الأريمبيين،

(*الأوذيسا* IV، 84)

تنشأ لدى الشارحين صعوبة بالنسبة للصيدونيين أوّلاً: هل ينبغي أن يعدّ هؤلاء واحدة من القبائل التي تقطن الخليج الفارسي، الذي كان قد استعمره الصيدونيون الذين يقطنون في القسم الذي نعيش فيه من العالم، على نحو مماثل لما يقولونه عن صوريين سكّان جزر وعرب يقال إن مستعمريهم يعيشون في شطر العالم الذي نعيش فيه، أو ينبغي أن نرى فيهم الصيدونيين أنفسهم. وتأتي بعد ذلك مسألة الأريمبيين التي تعدّ أكثر غموضاً: هل ينبغي أن نقصد هنا إلى التروغلوديتي (كما يفعل الذين يتعسفون

في التعامل مع اشتقاق كلمة «اريمبيين» إذن يشتقونها من eran embainein، أي «يمشي في الأرض») أم إلى العرب؟ فزينوننا[56] مثلاً، يغيّر في النصّ ليصبح على النحو الآتي:

... حللت ضيفاً على الصيدونيين العرب.

أمّا بوسيدونيوس فيقرأ هذا البيت قراءة مقنعة أكثر، لكنّه يدخل عليه تغييراً ليس ذا أهمية:

... حللت ضيفاً على الصيدونيين، والأرامبيين.

مفترضاً في غضون ذلك أنّ هوميروس دعا العرب المعاصرين على هذا النحو، كما كان يفعل كتّاب عصره الآخرون. وبحسب بوسيدونيوس أنّ العرب كانوا يشكلون ثلاث قبائل كانت أراضيهم تقع واحدتها بعد الأخرى مباشرة، الأمر الذي يدلّ على وحدة منشئهم؛ ولذلك دعوهم بأسماء متشابهة؛ فحملت إحدى هذه القبائل اسم «أرميان»، والأخرى اسم «آراميين»، والثالثة اسم «أريمبيين»، إذن يمكننا أن نتخيّل أن العرب كانوا ينقسمون إلى ثلاث قبائل، تبعاً لاختلاف دوائر العرض (التي تتغيّر دائماً أكثر فأكثر)، ولذلك يمكن قبول فرضية أن يكون لهم عدّة أسماء بدلاً من اسم واحد. ولا نستطيع أن نقبل أيضاً قراءة بعضهم الذين يستخدمون كلمة «إريمنيين»[57]، لأنّه من المناسب أكثر أن يطلق هذا الاسم على الإثيوبيين. ويأتي هوميروس على ذكر «الأريميين»[58] أيضاً، وبحسب بوسيدونيوس إنّ الشّاعر لم يعن بهذا الاسم أيّ مكان في سوريا أو كيليكيا، أو في أيّ بلاد أخرى، إنما عنى سوريا نفسها. فالشعب الذي يعيش في سوريا هو الشعب الآرامي، ولكن قد يكون الإغريق دعوهم أريميين أو أريمانيين. ومن المعروف أن التغيير في أسماء القبائل، خاصة القبائل البربرية، كان أمراً شائعاً لدى الإغريق. فقد دعوا داريوس على سبيل المثال «داريكوس»، وبارساتيدا- «فارزيريدا»، وأفارا- «أترغاتيس»، مع أنّ كتيسيوس يدعوها «ديركيتو». وفيما يخصّ «سعادة» العرب، فيمكننا أن نسوق برهاناً عليها نيّة الإسكندر، الذي يقال إنه أراد أن يجعل من العربية مقرّه الملكي بعد عودته من الهند. لكنّ خططه كلّها انهارت بسبب وفاته المفاجئة. وعلى أيّ حال فقد قضت واحدة من خططه باستطلاع ما إذا كان العرب سيقبلون به طوعاً، وإذا ما جاءت النتيجة بالرفض، فهل ينبغي محاربتهم وإخضاعهم بالقوة. ولذلك حينما رأى الإسكندر أن العرب لم يرسلوا إليه سفراء لا قبل حملة الهند ولا بعدها، أخذ يستعد للحرب، كما كنت قد أشرت[59].